عزمي بشارة

نشيد الأنشاد
الذي لنا

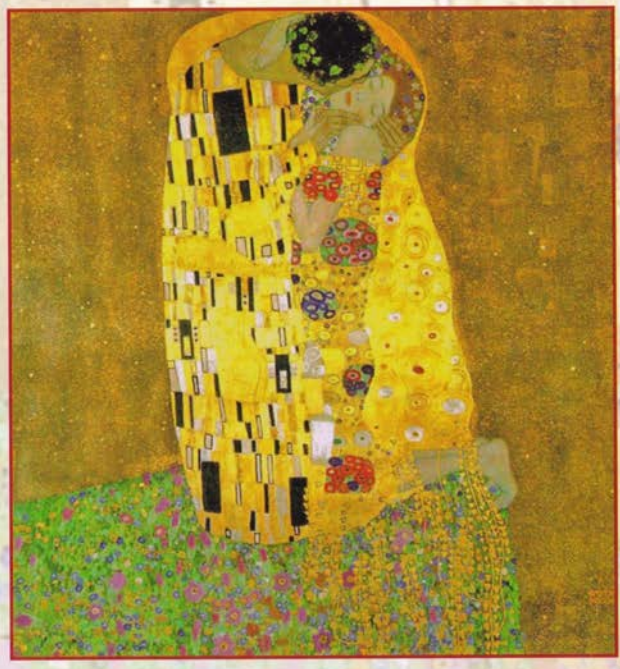

مكتبة ٦٧٢

المركز الثقافي العربي

مكتبة | 672
سُر مَن قرأ

عزمي بشارة

نشيد الأنشاد الذي لنا

الكتاب

نشيد الأنشاد الذي لنا

تأليف

عزمي بشارة

الطبعة

الأولى، 2008

الترقيم الدولي:

ISBN: 978-9953-68-322-0

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب: 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 2303339 ـ 2307651

فاكس: 2305726 ـ 2 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب: 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 01750507 ـ 01352826

فاكس: 01343701 ـ 961+

www.ccaedition.com

Email: cca@ccaedition.com

عزمي بشارة

نشيد الأنشاد الذي لنا

مكتبة | 672
سُر مَن قرأ

المركز الثقافي العربي

تمهيد لا بد منه

هذا النص هو معارضة أدبية حديثة، (ويمكن إضافة: عربية وفلسطينية...)، لنص قديم هو «نشيد الأنشاد الذي لسليمان».

يردُ نشيد الأنشاد سفرا في التوراة، وتختلف الآراء حول أصله الكنعاني الما قبل توراتي، إذ إنه النص الوحيد في التوراة الذي لا ترد فيه كلمة الله.

هذا نص أدبي إيقاعي (إيقاعية؟!). ولكنه ليس شعرا، ولا شعرا نثريا.

تستخدمُ الهوامشُ هنا بمعناها الأدبي لا الاصطلاحي. فهي ليست هامشا على نص. وليست هامشا على أصل، بل هي نص، وهي أصل. إنها جزء لا يتجزأ من النص.

المؤلف

مكتبة
t.me/t_pdf

نشيد الأنشاد الذي لنا

تسعة أصحاحات

عزمي بشارة

الأصحاح الأول

ترنيمةٌ لهُ
ليس لأحدٍ سواهُ
ترنيمةٌ لي
ليس لأحدٍ سواي
نشيدٌ لنا
هو وأنا...

جسدُه يجمعُني بجسدي
روحُه تجمعُ روحي
يبادلُني الأنفاسَ
يوردُني رأسَ ينبوعِ الهواءِ
بدايةَ بداياتٍ تفتَّح لها صدري
ما إن بلغَ سنَّ الرشدِ
حتى اشتدَّ عودي...

تُغمِضُ القبلةُ فمي وعينيَّ
تَفتحُ خاتمتُها جفنيَّ
فيبهرُني الضوءُ
تفتحُ نهايتُها شفتيَّ
على لهفةِ التنهّدِ
على تنفُّسِ الصعداء
على روحِ الهواءِ
على تورّد الخدودِ
على هربِ العيونِ من العيونِ
ثمالةُ الخجلِ العنيدِ
تأبى مغادرةَ المسافةِ بيننا
بعد تبدّد الحدودِ...

أموت وأحيا بعد قُبلتِنا
كانفصالِ الجسدِ
عن حبل الوريدِ
يبعثُ النَفَسُ الحياةَ
في رئتيّ وصدري
وينقذني من الموتِ الأكيدِ

يصِلُ سببي بغاية وجودي
فيجسر
ما بين الولادةِ والخلودِ

أسمته أمُّه
فتحيَّرَ القدرُ
وزفرتِ الدنيا
بعد طول انحباسٍ
وتأثّر بالموقفِ الحجرُ،
ضمّتْه إلى صدرِها
فمنحَتْنا العناقَ معنًى
للحياةِ...

ذاتَ فرحٍ
جذب ضفيرةً في الروحِ
شدّ شعري مشاكسًا
سحبَ نَفَسي إليه
وجرى كأنه زمني
صار عمري يجري أمامي

لحقتُ بعمرِيَ العمرَ
شدّني شغفُ الصِّبا
لأني أريدُه
وتشدّني ثقةُ البلوغِ
لأنه يريدني
كنت أتوعّدُه أن يتوقّف
عندما توقّف واستدارَ
بعينين ضاحكتين
حبس الزمانَ
وألقاه موقوفًا
عند قدميَّ صبانا...

كان الانجذابُ فضولاً مبتهجًا
والشوقُ يَلقَى ذاتَه في العناقِ
عِشْنَاه شوقًا في اللقاء
ما خَبِرنا في الصِبا
شوقَ الفراقِ...

حيثما وقفَ
قفزتُ إليه راكضةً
تلقّفَني بكفّيه
هبطتُ على زنديه
يداه إشبينان واثقان
يزفّاني إلى صدرِه
كانتا أبديّتين...

كلُّ مألوفٍ بي
كان منه
كلّ جديدٍ عثرتُ عليه
لم يكنْ سوى نفسي
مدهوشةً بما يمكنُها أن تكون
تَوحَّدَ في سعادتي الحبُّ بالحبِّ
والحزنُ بالفرحِ...
في غابرِ زماني
كنتُ محضَ جميلةٍ...

قال لي:

كنتِ ما كنتِ

أصبحتِ في حاضرنا

حسناءَ

تخلبُ الخيالَ

وتأسرُ العشّاقَ

أصبحتِ في زماننا

لطافةً شفافةً

تحكي نعومةَ جدولٍ رقراقِ

يتلو في السفوح وفي التلالِ

جوابا لأحجية الجمالِ

هامسا بالسرِّ،

سرِّ صناعةِ الخلاقِ

لتنفطرَ الجبالُ من فرطِ الخشوعِ

وتزيدَه من دمعها المُهراقِ

أصبحتِ سمراءَ،

وقد انتحلتِ لونَ الارضِ

لا نقصا وقلةَ لونٍ

بل جريا على عرفِ السقايةِ

والعذوبةِ في التلاقي
وسوادُ الثرى
إذ عشقتِهِ نَضَر
وأصبحتِ يانعةً
فمع المسقيِّ اخضوضرَ الساقي

تسلّقنا القمةَ متشابكَي الأيدي مرتعشَين خائفين. نظرنا في فوهةِ الزمانِ. ومشينا على حافةِ المقدّسِ. وفي كل مرة فضّلنا العودةَ إلى سفوح مألوفِنا، وعكفْنا على حقائقِنا الصغيرة.

عدنا إلى عشبِنا المبتلِّ بالندى وزعترِنا وترابِنا وحجارتنا وسماءٍ هي سماؤنا. نستلقي على ظهورِنا لنحدّقَ فيها، ثم نعودُ إلى أفقِنا المتناهي.

كنا إذ نتعانق، نديرُ ظهورَنا للمطلقِ. وينظر أحدُنا في عيني الآخر بصمتٍ. عرفنا دون أن ندري الحاجاتِ الإنسانيّة.

كنت أحسبُ أني
مثلُ حليبِ الماعزِ ناصعةً

كالثلجِ، كأثوابِ العرائسِ
كندفِ قطنٍ في الغمامِ
هبَّ عليَّ
فاختلطتْ كلُّ المواسمِ فيَّ
نوَّرتِ اللوزيّاتُ في الحولة
وفي مرجِ ابنِ عامر
تمايلتِ السنابل
وتفتّقتِ الأرضُ البور
عن زنابقَ كالفطرِ
وعن زهورٍ كالزهور
وعلى سطحِ البحيرة
سارَ ابنُ مريمَ
راجِلا إلى طبرية
وبَهَرَ الأرجاءَ والأشياءَ
سناءٌ، لا يجهرُ باسمٍ
ولا ينبئُ بيقين
أنا والنورُ وما بيننا
أبطالُ قصةِ الخلقِ هنا
سقط سهوا من نَصِّنا

دورُ الظلمةِ في التكوينِ
وفي حضرةِ الجمالِ والبهاء
لان قلبُ الزيتونِ
وانكفأَ صاحبُه المسنُّ
كي لا يُشَاهَدَ
وهو يزهرُ في الخفاءِ...

أمسيتُ بيضاءَ
وأصبحتُ سوداءَ
مثل ثوبِ سهرةٍ
سقط لمرّةٍ أخيرةٍ
عند قدميه وقدميّ
يا بناتِ حيفا وبيروت
ويافا واللاذقيّة
يا بنات المُدِنِ العربيّة
يا نساءَ مرافئ المتوسّطِ
لم أولد صفحةً سوداء نقيّة
لم أُنجَب خرقةً بيضاء شقيّة
جئت كما الأطفالُ،

بلونِ الطفولةِ
كبرتُ على ملمسِ صدرِه
شقراءَ وسمراءَ وقمحيّة
لا تخيفُني شمسُ المنفى
يا بنات القدس وحيفا
فشمسُ غربتِه الحارقة
لفحتْني في حياةٍ سابقة...

الأصحاح الثّاني

قال لي:

لكِ نكهةٌ، لم أصادفْ مثلها

ليس نهداي «رمّانًا ناضجا»

ولا «خِشْفَتي ظبيٍ ترعيان»

ليست شفتايَ سوسنا

وإن خابَ ظنُّ سُلَيمانَ

فأنا عبقُ فيجَنِ الجليلِ المنثورِ

على حبّاتِ الزيتونِ

ميرميّة مفروكةٌ على كفّين

أنا تبغُ جنوبِ لبنانَ

وشمالِي فلسطين

يدبغُ الأصابعَ والشاربَيْن

زهرُ ليمونِ الساحل

وجبلِ عامل

رائحةُ تفّاحِ الجولان
ما تبقّى من غوطةِ دمشق
زهرة الشرق
نوّارُ اللوزِ
وهو يعزف الأبيضَ بالأبيض
أنا بعدَ الربيعِ
قلقُ انتصافِ العامِ
ووخزُ السؤالِ
عن تسارعِ الأيامِ
عن تدهورِ الأحوالِ
عما جرى
عن المصيرِ، عن المآلِ
أنا في تشرينَ لونُ البرتقالِ
وفي كانونَ
حادي القوافلِ
من السندِ والهندِ إلى المهدِ
بذهبٍ ومرٍّ ولبان
ما لبث يعطِّرُ الطريقَ
إلى بيتِ لحمَ العتيقة

حتى حوصِرَت بجدران
أنا فوْحُ خليطِ الجوزِ واللوزِ والسكّر وأعواد القرفة
وجوزة الطيبِ
وماء الوردِ
شذا خلطِ كعكِ العيدِ
بفرحِ ولدٍ سعيد
مُسِخْتُ بدهنِ العودِ
سيدةً عليهِ وأميرةً له
أنا عطرٌ صباحيٌّ
يتلألأُ في قطراتِ الندى
على أوراقِ الليمون
أنا فلٌ في الزَّرِيعةِ المنزليةِ
حبقٌ في صفائحَ لوَّنها الفقراءُ
على مداخلِ بيوتٍ صغيرةٍ
يسكنُها مؤقّتا منذُ ألفِ سنة
مهجَّرون في بلادِهم
ولاجئون في بلادنا
ابنةُ تلك البيوتِ أنا
كانَتْ خيامًا، وكبِرَتْ صفيحًا

وشاخت اسمنتًا صريحًا
كنتُ الياسمينَ على
فسحةِ الأملِ
كنتُ غطاءَ الفضيحة...

أنا رشفةٌ صباحيّة
تقرأُ سرَّ الحياةِ
بفنجان قهوةٍ عربيّة
صفنةُ أهلِه على الشرْفَة
تنهيدةُ تلك البيوتِ الصغيرة
طرَبُ التجاويدِ القرآنيّة
وفيضُ التراتيلِ الشجيَّة
والشعرِ العربيّ
وحبُّ النبيّ
وأبي الطيِّب المتنبي
وعمرَ والحسينِ وعليّ
وخالدٍ وصلاحِ الدين
وابنِ عربيّ

ويوحنا فمِ الذهب وسمعانَ العموديّ
وأبي العلاء والبحتريّ
أنا وِشاحُ الحسناواتِ
وقدود الموشَّحاتِ
أنا الخجلُ الشرقيُّ
والشبقُ الخجولُ
أنا في صيفِنا القائظِ
نسمةٌ عليلة
تَعْثُرُ لوالدِي كلّ يومٍ
على سببٍ للعيشِ
لا تعدمُ وسيلةً وحيلَة
فمزاجُه مزمنٌ
يسائلهُ عنِ المعنى
بعدَ كلِّ ظهرٍ
قبل كل قيلولة
أنا استغفارُه
من هذا الزمانِ
بعد نشرةِ الأخبارِ

وتنهيدتُه المهمومةُ الطويلة،
كيف يجرُؤُ
أن يبحثَ في أيِّ مكان
عن نكهةٍ مثيلة...

بردْتُ فغطّاني
مرضْت فداواني
ضعفْت فضمّني
يئستُ فشدَّ من أزري
جزعتُ فمنحني نفْسَه ملجأً
تعبتُ فغسلَ رجليَّ بنقيعِ الورد
وأسقاني ليمونا بماءِ الزهرِ
انهرتُ فلملمني
خلعتُ جسدي على بابِه
لفّ جسدَه حول ما تبقّى
من روحي
ثم قدّم لي الشايَ الداكنَ
في كؤوسٍ زجاجيّة صغيرة...

وسادتي يسارُه تعانِقُني
يمينُه تغطّيني
تلفُّ خاصرتي النحيلةَ
تُطَمْئِنُ وسطي
تدفئُ معدةً مقروحةً
تحملُ خوفَ الأمّهاتِ الشرقيّات
على أطفالِهنّ من الهواء...

استسلمتُ له
غبتُ بين يديه
اختفيتُ في صدرِه
غرقتُ في عينيه
لفَظَتْ وحدتي أنفاسَها الأخيرة
انطويتُ عليه وعلى نفسي
متّ وقرعتُ أبوابَ الجنّة
وقمتُ من بينِ الأمواتِ
ولدت من رحِمِه من جديد
وهو الآن نائمٌ
فلا توقِظْنَه يا بناتِ فلسطين

أستحلفُكُنَّ بالقدسِ وبالحرمِ،
بما استعصى على الهدمِ
بالصابر على الضيمِ
بالثائر على الظلمِ
في المنفى وفي الداخل
بمن تبقى في غزة من الساحل،
لا تنبِّهْنَه
أمهِلْنَني كي أعدَّ القهوةَ
أمهلنني لأقرأَ الجريدةَ
قبل أن يصحوَ
فأجدَ كلاما عاديّا
لتمرير الوقتِ
ريثما يبدأُ بالحديثِ
فلا أسمعُ
أتأمّلُ شفتيه
ويحضنُنا الصباحُ...

كان الكلامُ من فضّةٍ
بعدَ تأملِّ شفتيهِ

صار الكلامُ من طربٍ
ليبقَ الصمتُ من ذهبٍ
من يهتمُّ بالذهبِ؟

هكذا يبدأُ العاديُّ الذي فينا يومَه. نأبى أن يندسَّ بيننا في بدايةِ النهارِ شيءٌ آخرُ غيرَ مألوفِنا.

تميتنا الغيرةُ وتُحَيينا. ويملكُ أحدُنا الآخرَ. لا نبحثُ عن شخصيتِنا المستقلة ولا تغرينا تعابيرٌ مثلُ حقِّ الاختيار. واحدُنا عبدٌ للآخر. كلٌّ منا سيّدُ الآخر. هوانا غيرةٌ، وغيرتُنا هوًى. وليس فينا حرٌ سيّدٌ على جسدِه. نتمسّكُ بفرديّتِنا وحرّيّتِنا حين يحضرُ الآخرون، أمّا في حضرتِنا فتفقدُ الحرّيّةُ معناها بمحضِ إرادتها وإرادتنا.

نحن تقليعةٌ قديمةٌ
مثل أهلِنا الذين
وقعوا في الحبّ
من بدايةِ الزيارة
وتبادلوا الرسائلَ

واختاروا لبعضهم أشعارا
ورافقهم صِبْيَةُ العائلةِ
في نزهةِ الخطَّاب
خَفَرًا أو وشاةً صغارا
لم يقبلوا يوما تفاهاتٍ
تجترُّها الأفلامُ والأقلامُ
مثلَ أنَّ الحبَّ يعني
ألا يقدَّمَ الحبيبُ للحبيبِ
إذا أخطأَ اعتذارا
ثم أحبّوا بعضَهم على الشرفة
مع فنجانِ قهوةٍ وسيجارة
وتبادلوا الرأيَ صباحا
بشأن وجبةِ الغداء
بالكاد غادروا الدار...

عبثا بحثْنا عن العادي
الذي فُقِد
لم نقبلِ الخسارة
عبثا نبشنا كلَّ زاويةٍ

عبثا قلبنا كلَّ حجرٍ
فما عثرنا على
حبٍ على الشرفةِ،
إذ وُطِّنَت في البيتِ
فورَ السطوِ،
وحلَّت محلّ أهلِنا
الحضارة

القفرُ للقادمين الوافدين، وما بينَ القرى لهم أيضا. لم تنجُ بقعةٌ للاعتزالِ والتوحّدِ، ولا للاكتئابِ. لا وحدةٌ أو عزلة إلا صودرت، أو خصوصيّة إلا أمّمت...

الأصحاح الثالث

قال لي:
عرفتُكِ حالما لاحَ المحيّا
شبّهتُكِ بحلمٍ عادني
في صبايَ
وجدتُكِ حينما سُرِقَت
من تحتِ وسائدِنا الأحلامُ
استعدتُكِ بعدما أُبعِدت
من زمنِ البلادِ تلك الأيامُ
كلّما اغتربتُ عمّا حلّ بنا
حولنا،
كلّما سُحِبَت
الأرضُ من تحت الأقدام
توطّنتِ فيّ وتوطّنتُ فيكِ...

عناقُنا عزلةُ واحدٍ

وحدةُ اثنين

يخِزُنا القلقُ في أكتافِنا

بردٌ يؤرّقُ ظهورَنا

ويكاد يقتحمُ الصدورَ

أدَرْنا ظهرَنا للمُطْلَقاتِ

وتجاهلنا اللا نهايةِ

لكنّا عجزنا

عن التخلي

وما تنكَّرنا لأحلامِنا المسلوبة

قال لي:

كم تشبهين أمَّك التي وضعَتْكِ من حلمِها في حلمي. لا أشبِّهُكِ بحسناءَ. لا أشبّهك بنجمةٍ في أفلام الرجال. لا أقارنُكِ بمغنّيةٍ رقميّةٍ محمّلةٍ في «فيديو كليب». لا أشبِّهكِ بشخصيّة من صناعة الأحلام.

صناعةُ الأحلامِ

وصنعةُ تقريظِ الكلامِ

مهارةُ من يحلُمون

ومن لا يحلُمون
وأنتِ حلمي الذي صنعني
ما أجملَكِ دونَ مواصفاتٍ ومعايير
ما أحسنَكِ دونَ لغوِ المقاديرِ
والقواريرِ والعقاقير
والفيتامينـاتِ وقشورِ الخيار
المتجمّعةِ في صباحيّةِ إفطار
في مقهى مجمَّعِ تسوُّق
ما أحلاكِ، وما أحلكَ شعركِ
وما أنسبَها زينةً شفّافةً
تُظهرُ ألوانَكِ
ما أنعمَ مخملَك دون مساحيق
حطّمتُ في هيكلكِ
أصنامَ عبادةِ الناسِ للبشرِ
وكسرتُ تحت قدميك
سلاسلَ ذهبيّةً صنعوها لكِ
لتدوسي عليها
ضاقَت نفسُكِ بالتقاليدِ
فغادرتِ حيَّك صاغرةً للتقاليع

وعدتِ إليكِ
متمرّدةً عليها...

في ملكوتكِ الأرضيّ
فاحَ لُبانُ محرابِك
وعشّشَ بَخُورُكِ
حيث ينطوي
أيُّ شيءٍ مني على ذاتِه
وسكن عودُكِ في شعري
وفي خَلَدي
وفي كلِّ جرحٍ في النفسِ
ما أروعَ حضورَك
ويا لروعِ إغلاقِ البابِ على غيابِكِ
خشبيّ جفافُ الحلقِ
ينذِرُ بعاقبة الفراقِ
بوجعِ الشوقِ
أعراضُ الحنينِ
تلوح كالأقدارِ في الأفقِ
وعكةُ الانفصال ثقيلةٌ

ينوءُ بحملِها الصدرُ
أعِدُّ قلقي
لساعةِ وداعٍ
ليس كمن يودّعُ
بل كمن يترقبُ
أن يلجَ فتحةَ البابِ
أن يتسلّلَ القدرُ...

لا شفاءَ للنفسِ
من عادةِ التمنّي
أن تعودَ عجلةُ الزمنِ
أن يغيّرَ الوقتُ وجهتَهُ
أن تتسمرَّ إلى الأبد
لحظةُ القبلةِ
على إطار بابٍ نصفِ منفتحٍ
بغصّتِها ودمعتها الساخنة اللائمةِ
هكذا تكلّم حبيبي
عبثا أتذكّرُ متى وأين...

جزِعةٌ تلك النفسُ المدركةُ عجزَها
أن تجعلَ الزمانَ يدور بنا
يعيدُنا إلى السريرِ
أن يعودَ على أعقابِه
أو ينسدَّ مجرى الزمنِ
ليفيضَ الحبُّ على ضفّتيه
كان يكفي الصبا
أن يرمقَ اللحظةَ
بعينين ضاحكتين
كي تجمدَ في المكانِ...

تقولون واهمةٌ
تمنّي النفسَ طورا،
وأطوارا تواسيها
صرّةُ العشقِ ما زالت معلّقةً
على صدري أيقونةً
ما انفكّت محمّلةً
بعطرِه المرِّ على نهدَيّ
ما زال قرطُ الوجدِ

تميمةً مكتوبةً
تعويذةً معقودةً
كالجمر تحت غيابِه يتوهجُ
حرارة أنفاسِهِ
تدغدغُ عنقي
ما زالت أشواكُ غيرةٍ مجنونة
أدمت جَنانَه
خاتَمًا يلفُّ خاصرتي
لوعةً تغلّفُ لوعتي...
ما زالت أغنيةً على صدري
وقصيدتين معلّقتين على أذنيّ
ما زال القفرُ يزهرُ كما أزهرَ
احتفاءً بقدميّ على الثرى
وأنا أمشي لتأخذاني إليه...

الأصحاح الرابع

ذاتَ لقاءٍ دعاني لنزهةٍ
في المدينةِ عندَ البحرِ
قبلَ الجبلِ بلحظاتٍ
بمعطَفَيْ مطرٍ ومظلّةٍ واحدة
تحت الرذاذِ
بقلبين ونبضٍ واحدٍ
جبنا شوارعَ المدينة
راقبنا المارةَ بصمتٍ وسكينة
كانت سعادةٌ دافئةٌ
تسري في عروقِنا
تُطَمْئِنُ أجسادَنا
لأنّ الشتاءَ قد حلَّ
والشوارعُ خاليةٌ
عابرو سبيلٍ متفرّقون

يتبعثرونَ إلى بيوتِهم
خوفا من البَلَلِ
شعريَ رطبٌ
ويدايَ باردتان
وجسدي ساخنٌ
أنفاسُنا بخارٌ أبيضُ
ونفوسُنا مزهِرةٌ
وصوتُ انهمارِ مطرٍ
رماديٌّ فاتحٍ
يُسمَعُ على الصفيحِ والزجاجِ،
باستغرابٍ وسأم
يرمِقُ السائقون
نزهتَنا الرطبةَ وقتَ الغروبِ

منذ أن صودرَ الفضاءُ وامتنعَ عن التنقّلِ بين الأماكن، تجولَّ بين الفصولِ واستقرّ في الشتاء الماضي. تجنبَّ الخروجَ إلى الشوارعِ صيفا، إذ خلدَ إلى النومِ والقراءة. هربَ من صيفِ الساحلِ إذ أصبحَ مرتعًا للسيّاحِ والمستوطنين، ولجأ إلى قممِ

الجبالِ وإلى ما تبقّى من المزارعِ والكروم.

أحَبَّ لونَ البحرِ المكفهرّ الغنيِّ الألوانِ في الشتاءِ. المدينةُ في هذا الفصلِ أجملُ، والناسُ أهدأ. ولا مَكْرَهاتٌ بصريّةٌ تزعجُه. يغسل الشتاءُ المكانَ ويُخْلِيه لنا، فلا نبذلُ جهدا ليتركّزَ أحدُنا بالآخر وسط المدينة.

قال لي:

كوردةٍ ذاتِ شوكٍ بين الخمائلِ،
مثلُ رائحةِ زيتِ الزيتونِ بينَ الزيوت،
مثلُ عبَقِ البَخُورِ
يطغى على عطورِ السيداتِ يومَ الأحد
مثلُ رونقٍ من هدوءٍ وحكمةٍ
وسكونٍ وأناقةٍ
ترفلُ فيها سيّدةٌ بين ثرثاراتٍ
حين يُصدِرْنَ طنينا كخليّةِ نحل،
هكذا أنتِ بين البنات
مثلُ فرحةِ البسطاءِ والفقراءِ
بهلالِ رمضانَ،

هكذا تُدخِلينَ البهجةَ
إلى قلوبِ الأنامِ
حينما تَدخُلين،
مثل تسابيح الموالدِ الشعبيّة
وترانيم الفصحِ الشرقيّة
تُفرِح وتُحزِن معًا
تبشِّرُ وتلوِّعُ القلوبَ في آن
هكذا تدهشين العيونَ
التي تلحظُكِ بين البنات
زمن الفواتِ
عند عبورِهنّ السريعِ
بين الغفلةِ والانتباه،
بين صفنةِ الناس العدميّةِ
ولفتتهم المأخوذة،
بين التفاتتِكِ المذهلةِ
والتفاتتِهم الذاهلة...

وقال:

أنتِ خريفي في الصيف
وربيعي في الشتاءِ

دعيني أتّقي بك
من نفوسٍ تقتحمُ فضائي
ومن نفسي التي
لا تنفكُّ
تقتحمُ مكنوناتِ النفوسِ
قفي إن شئتِ
اجلسي، اضطجعي
استندي إلى الحائط
إن رغبتِ
اتّكئي على البابِ
انتشري حولي
راوديني عن خيالي
إذا أردتِ
افْتِني أفكاري وأحلامي
افعلي ما تزيّن وما ترتئين
كوني فقط حاجزا
كوني حاجبا
كوني حائلا دونَ
النظرِ إلى الناسِ والأشياءِ

عندما ألجأ إليكِ
دعيني أجهشُ بالبكاءِ
لا تشجّعيني
لا تشدّي من أزْري
لا تهوّني الأمرَ عليّ
ولا تمدّيني بالقوّة
لا تدفعيني إلى هناك من جديد

اجلسي إلى جانبي في السيارةِ ندندنُ حين نستمعُ لأغنية. ساعديني أن أنسى من أينَ وإلى أين أتجه. أقنعيني ألاّ أفارقك مرة أخرى. أفهميني بالحسنى أو باللاحسنى أنّه لا معنى دونَك أو سواكِ، وأن أتركَ كلَّ شيء.

كان يلحُّ عليَّ
أن أذكِّرَه إذا نسي
حين يغرقُ في التفاصيلِ
أنه بعد أن نولد،
تفقد الأشياءُ معناها
أمامَ الحبِّ والموتِ

تزولُ حالما توجد
الحبّ يلغيها
وحين يختزلُ الحياةَ بذاتِه
تفوزُ بالمعنى الحياةُ

أما الموتُ فلا يعني
إلا الموتَ...

لاجئٌ هنا منه إليَّ
وغريبٌ هناك عني وعنه
كنت أحنُّ إليّهِ في بعدِه
ويحنُّ هو إليّه في ابتعادِه
كنتُ مأواه حينَ يخلدُ لي
وطيفَ بيتِه حين يبتعد
وحين أوجعَه الشوقُ
أوجعني مني ما يشتاقُ إليه

مكتبة
t.me/t_pdf

الأصحاح الخامس

عادَ من تَجوالِهِ
بين المواسِمِ والبِلادِ
والأقاليمِ والفُصول
عاد من البعادِ إلى البعادِ
من مكانٍ صودِرَ زَمَانُه
إلى زمنٍ احتُلَّ مكانُه،
رجعَ إلى الشوقِ من الشوقِ
من الحنين إلى الحنين
من الوداد إلى الودادِ...

غادر محملا بكلَّ ما غادر
وعادَ تَعِبًا من التّوفيقِ
بين كرامَةٍ مُعتَكِفَة
وذُلٍّ تُعقَدُ لهُ حفلاتُ تكريم،

مرهَقًا من رؤيةِ الأكاذيبِ
الرَّاضيةِ، والجَذِلةِ بطرًا
والكاذبين المحلَّفين،
استَنزَفَتْهُ صورةُ الحقيقةِ
هائمةً بلا مأوى
تتوَسّلُ التميّزَ عن الكذبِ
على قارِعَةِ المشهَدِ
ومعسولُ الكلامِ اللبقِ
يسخر من الفرقِ
والتّضامنُ يتسوّلُ تضامُنًا
على مفارق الطرقِ

لم يصنَع ضجّةً تُعلِنُ حُلولَهُ بيننا. لا يسبقه منادٍ يشقُّ طريقَهُ بين المارّة. لم ينسلَّ، ولم يتلصّص. كان يُهاتِفُني لِيقولَ إنَّهُ عائد... ما أحب المفاجآت في حياتنا، ولا تسارع نبضات القلب الذي تسببه، فقد عافتها نفسه في الحياة الدنيا.

لم يبحثْ عن ثورةٍ عندي
بل عن خفقانٍ رتيبٍ للقلبِ

عن انسجامِ الروحِ
مع الأشياءِ
ولو كان
اتساقَ مكروبٍ بكرِبِ
عن انسيابٍ في الدنيا
إذا لقَّنتُها لغةَ الحبِ
وكان يفاجِئني بهدوئِهِ عندما يسأَلُ إذا عدتُ من العملِ لأنّهُ آتٍ.
بحثَ عن وطنٍ في السّكينة. كانت سكينتُنا تأمُّلاً، وحديثًا، وإصغاءً، ومواضيعَ مثلَ طريقَةِ إعدادِ الشّايّ، والقهوةِ جيّدَةِ الغلي، كثيرَةِ الهيلِ، قليلَةِ السّكّرِ، والإسبرسو من غيرِ سُكّرٍ، نُحِبُّ حموضَةَ مرارَتِه، والصّفنةَ معًا، وتبادُلَ الرّأيِ حولَ الزُّملاءِ في العملِ، والأسعارِ، وتعليقاتٍ على ما نَراهُ في التّلفاز.
يُغادِرُ متوَقَّعًا
كما يرِدُ
وأُوقنُ أنّهُ غادَرَ
حينَ يُلِّمُ بي الوجد
أدركُ حين أَطلُبُهُ

فلا أَجِدُ غيرَ ما
لا أَجِدُ،
وأحِسُ من حولي
ازدحاما فارغا
يكثرُ العددُ، ويندُرُ الودُّ،
والفقد يشتدُّ
حين يُستبدَلُ الناسُ
بالجمهورِ
يغدو التفردُ دَرَجةً
وينقلبَ التفردُ عكسَه
لا وِدُ، لا فردُ، لا أحدُ
وتصفر الريحُ في الأرجاءِ
وينزعُ سحرَه البلدُ...

حلاوةُ الشّوقِ مثلُ مُلوحَتِهِ
تُصيبُني بالظّمَإِ
ليسَ ما يُسليني
عن نَفسِه وعنّي
لا أمر يشغلني

لا التّنبيهُ يُنَبِّهُنِي
ولا اللّهوُ يُلْهِيني
ولا الجَمْعُ يفصِلُني عَنهُ،
في عالمٍ ليسَ فيهِ
لا أنتبِهُ إلاّ لغيابِهِ

يأبى أنْ يكونَ نفيُهُ إثباتًا لِوجودِهِ. ولا يحتَمِلُ أنْ يطلُبَ مِمّن هجَّره إذنًا بالبقاءِ، لا يريدُ تسامُحًا مِمّن قام على الخرائِبِ. فاترُكْنَ لي قَلْبَهُ يا بناتِ فِلسْطين. قَلبُهُ لي يا بناتِ الجليلِ. أبقِينَ بَعضَ كُلّهِ لي، فَكُلُّ كُلّي لَهُ.

أرى طيفَ وجهٍ حَسَنٍ
مُطرِقٍ قُربَ الدّمار
يحتَضِنُ الرُّكامَ بِذُهول
كُلَّما تعثرت نحوه
يهرُبُ الطّيفُ مِنّي
أَجْري جنونًا إليهِ
علّني أجدُهُ وحيدًا
ليزحَفَ عائِدًا
أعرِفُ أَنَّهُ قادِرٌ

على أن ينسَلّ
من خُرمِ الحسرةِ
من فسحةٍ في الضيقِ
من أجلِ صفنةٍ على شُرفَةٍ
فوق الطريقِ
إلى قمة الكرمِلِ
يُلَمْلِمُ فيها شَظاياهُ
وَشظايا البَلَدِ
يتسلّلُ ويجمع الشّظايا في جيبِ سِروالِهِ، مِثلَ ولدٍ صغيرٍ عثرَ على قِطَعٍ نَقْدِيَّةٍ وَلَمّعَها بِأَكمامِهِ البَالِيَةِ، قبلَ أنْ يَضَعَها في جَورَبٍ قديم،
كأنه صبيٌّ
يجمعُ بأيدٍ موشّحةٍ
بخيوطِ التربةِ
عندَ الغروبِ، في نهايةِ اللعبةِ
كراتِه الزجاجيةَ
ويلقي ما تبقّى في الجعبة
مُسَلِّما لا يدري بماذا
أو مُستَسلِما لا يدري لمن

أو لماذا،
للحظِّ العاثرِ
أم للجيلِ القاصرِ
أم للوقتِ المتأخِّرِ
عتمةُ الحيّ لا تتيحُ فرصةً
للهوِ بريء
لا يبتغي أربا
ولا يحقّقُ مأربا
إذ أزفت ساعةُ
العودة من الحارةِ
من مغيب الشمسِ،
عادَ الجميعُ إلى عوائلِهم
وحدَه خارجُ البيتِ
في بداية العتمةِ
يلتقط من الثرى
كراتِه الزجاجيةَ
كي لا تنطوي في الظلمةِ...

لا ينتَمي لما بَنَوْا

فهوَ سليلُ ما هَدَمُوا
دَولَتُهُم، وَطَنُهم
مُستَوطَنُهُم، حاضِرُهُم مُستحضَرُهُم
ليست... كلّها ليست... ولم تكنِ
صار يسكن عند تشعب الطريق إلى اثنين لا ثالث لهما، كأنه يجاور شوكةً رنّانةً تطنُّ بذبذبةٍ عاليةٍ، بينَ أَن يُخليَ المكانَ لينتمي الى ما هدموا أو ينتميَ إلى ما بَنَوْا على الخرابِ.
وهناك عند مفترقِ سأَلتُ
عمّا بحث في بلدٍ
يبيحُ القتلَ والسطوَ
ثم يتيحُ شجبهما
ماذا توقع في زمانٍ
يبكي فيه القاتلُ كلَّما
قتلَ، وينتحبُ
مرتين يشكو ضحيته
مرة لأنها صنعَتْهُ
وأخرى لأنها صادرَت
للحظةٍ، هي لحظةُ القتلِ،

منهُ

دورَ الضحيةِ

مشدوهًا كأنّ طنينًا عاليًا داخَلَ أُذُنَيْهِ، أَذْهَلَهُ، بقِيَ صامِتًا في مكانِه يجمعُ الشّظايا، عبثًا حاوَلَ أَنْ يصنَعَ منها معنًى.

مَكنونُ سِرِّي أَنّه

لم يبقَ مِنْ وَطَنِهِ سالِمًا غيري

وغيرُهُ

أَلومُ نفسي أَنّي لا أُصارحهُ

فهل أبوحُ له

بسرٍ يكسِرُ قَلْبَهُ...

وهوَ ليسَ بريئًا

ولا يدعي البراءة

ولا يرى في التهمة إساءة

إنهُ مشبوهٌ ومشوبٌ

متّهمٌ وهائِمٌ

محبٌّ ومحبوبٌ

وجاذبٌ ومجذوبٌ
ومشدود إليَّ
ومسلوب ومأخوذ
وعاشقٌ بالسجيّة
ومتورّطٌ فيَّ...

معاصيه غزيرَةٌ
جانِحَةٌ مثلُ مشاعِرِهِ
ذنوبُهُ عديدةٌ
جامحةٌ مثلُ أفكارِهِ
أما هو
فقد تجشم الذنوبَ والمعاصي
والجنوحَ والجموحَ
لم ينكرها، ولم يعترف أمامهم
ولكنه اعترف لي...

يَتَّكِئُ على أَيِّ شيء
ليجولَ بنظرِهِ في البلادِ
عاجِزًا عن تَصديقِ

أنَّ البِلادَ قد غادَرَتْنا
وينزِلُ لملاقاتي
في كرومِ الجليلِ
وفي بيّاراتِ أريحا
بعد كُلّ شِتاءٍ سَخِيٍّ
تخضَرُّ للقياهُ الأَغوارُ
في فِلِسْطينَ والأردنِّ
وتُزهِرُ لفراقِه البادِيَةُ
في بلادِ الشّامِ
ويبدو عارِيًا رَمَادِيًا الجدارُ
يغسلُهُ الشتاءُ
ويفضحُ أمرَهُ المطرُ
ينتظرُني...

يقابِلُني في يافا وفي حيفا
ونجولُ بين أزقّةِ القُدسِ القديمةِ
من حَيِّ النّصارى إلى حارةِ السّعدِيَّةِ
من بابِ الخليلِ إلى بابِ العمودِ
الأزقَّةُ خالِيَةٌ من حَرَسِ الحدودِ

فضاءُ رائِحَةِ التّوابِلِ والعطورِ
يَصِلُ القُدسَ بِالقَصَبَةِ النّابُلسيّةِ
وبسوقِ الحميديَّةِ
بِكَعكٍ، بكنافَةٍ صباحِيَّةٍ
وموعدُنا مساءً مع قشعريرَةٍ
على سطحِ قاربِ صيدٍ
بين أسوارِ عكّا وصور
وأسوارِ صيدا
نبحرُ على طولِ سواحلِنا
ونرسو حيثُما شئنا...

ما إنْ وطأْتُ العُشبَ
المبلَّلَ بِالنّدى
حتّى انتابَني وَخْزٌ
دفَعَني إِليهِ
أُعانِقهُ
أَتأرجَحُ عندَ خاصِرَتَيهِ
يضُمُّني ويَحمِلُني
يدورُ بي دورَةً واحدَةً

دورَتَينِ
يحلقُ الجِسمُ المجذوبُ
ضدَّ الجاذبيةِ
وتخطُّ أصابِعُ قَدَمَيَّ
دائِرَةَ مجالاتِنا الحَيَوِيَّة
قلب فضائِنا النّابضُ قُبَلَةٌ
كونُنا وكينونتنا دَائِرَةٌ
مركزُها شفاهُنا المتلاصِقَةُ

قالَ لي:
كم أنتِ جميلَةٌ
قَدماكِ تُرفرِفانِ حولَنا
مثلَ ضَفائِرِ قُبلَتِنا المَجدولَةِ...

وحدي عثرتُ عليهِ
أنا وَجدتُهُ
لم يُعِنّي أَحَدٌ عليهِ
لا فَضلَ لمخلوقٍ سِوايَ
هوَ لي وأنا لَه

لِيسَ بيننا لا آلِهَةٌ ولا شيطانٌ
أُمُّهُ نَفسُها
تركتْنا وَحدَنا
ما لأَحدٍ عليه حقٌّ بعدَها
ولا ثالثَ بيني وبينَهُ غيرها
ها أنا لَهُ، وَهوَ لي
كانت جُدرانُ بيتِنا أَسوارَ القُدسِ
وَبيّاراتِ يافا
سَقفُهُ من أَرزِ لُبنانَ
وسياجُ حديقَتِنا السّاحِلُ السّورِيُّ
وأنا وهوَ، وفُسحَةٌ نظيفةٌ بانَت
بعد أن كَنَسَ الرّدمَ منها
جسدانِ متعانقان

الأصحاح السادس

أجلسُ على عرشِ جمالٍ فقَدَه، وحولي رجالٌ فارغونَ إلاّ من رجولةٍ فارغةٍ، يستمنونَ أسلِحَتَهم ويحمونَني مثلَ تُحفَة، يتنافسونَ على مودّتي كما تتنافَسُ ذكورُ الوُعول.

يمتَشِقونَ الثّروةَ، يستعرِضونَ الخيلَ والليلَ والغِنَى... تنويعاتٌ وتقاسيمُ على فحولةٍ فارهةٍ وأنوثةٍ ممتلئة من ذاتها في طقوسِ إغراءٍ وفي مراسيمِ عبادةِ الاستهلاكِ واستهلاكِ العبادةِ.

يحمونني خلفَ زجاجٍ معتمٍ، في سيّارةِ مسرعةٍ بين أحياءِ الفقرِ والذُّلِّ، وبينَ الحطامِ والرّكامِ وشظايا البِلاد... يحمونني من المعنى ويفصلونني عن أيّ دلالة لأي شيء.

يحترمونَهُ. يريدونَ التّوسُّطَ لا بين القاتل والقتيل فحسبُ، بل بينَ فكرة القتلِ وقناعةِ المقتولِ، ليس

بين السارقِ والضحيةِ فقط، بل بين شرعيةِ السطوِ ونفسِ المسطوٍّ عليه. تُستَحضرُ روحُ القتيلِ ليعترفَ بعد الوفاةِ بشرعيةِ القتلِ.

وبناء على ما تقدمَّ،

بعد أن كانت

كلُّ البلادِ بَلدَه

كلُّ البيوتِ بَيتَه

كلُّ النّاسِ أَهلَه

أصبَحَ غيرَ واقِعِيٍّ

وغيرَ مسؤولٍ

لا استفادَ ولا تعلَّم

لا استجابَ ولا تكلَّم

لا اعترفَ ولا تندَّم

صنعوا لي يختًا يبحرُ في شواطئِ شرقي المتوسّطِ، من طرطوسَ، واللاّذقيّةِ، وطرابلس وبيروتَ، حتّى عدن، والبحرين، والبصرة... رأيتُ دُخَانَ حرائِقَ ينعبثُ.

صمّمَهُ بنقوشٍ شرقيَّةٍ وأرابِسْك، معماريّونَ جُلِبوا من سيؤول، وميلانو، وطوكيو ونيويورك، وأثاثُ اليختِ من

صُنعِ مصمّمي أزياءٍ مشهورين.

نشتري اعتبارًا وقيمةً ومنزلة... عِشرةُ «ماركات» أجنبية على شكلِ أشخاصٍ مشهورين تُشعِرُ بعضنا هنيهَةً بأهميّة.

صوّروني معَ النُّجومِ لأُصبِحَ مهمّةً في نظرِهم ونظري. وأنا أحلُمُ وحدي بنزهَةٍ وحيدَةٍ لوحيدَينِ يمشيانِ ويتوحَّدانِ تحت الرّذاذ.

«عمرُ النّجومِ أطولُ من عمرِ المغمورينَ بدقائقَ أو ساعاتٍ خادعةٍ فقط، هي لحظاتُ الإعجابِ النّافِلِ».. هكذا تكلّمَ.

نالوا شهرةً سريعةَ الذّوبانِ وأهميّة للاستخدام مرّة واحدة من حيازَةِ ألقابٍ بلا معنًى، حتّى لمن ابتَدَعَها... دعَوْني إلى افتتاحِ مؤسسات «ماركة»، وبنايةٍ بناها معماريٌّ «ليبل»... وشعرتُ بالإحراجِ عندما سألوني إن قرأتُ آخرَ كتابٍ «بِسْتْ سِلِرْ»، وإن شاهدتُ آخرَ فيلم «براند»، لأني لم أسمع بهما من قبلُ... دَعَوني إلى حفلِ استقبالٍ أقيمَ على شرفِ حَمَلَةِ جائِزَةِ نوبل.

صادفت أناسًا يتباهَوْنَ بحيازةِ رقمِ هاتِفٍ متسلسِلٍ أو

«نمرة» سيّارةٍ متجانِسَةِ الأرقامِ، سهلةِ الحفظِ كأنّها إنجازٌ يُعتدُّ بِه. يجري هذا كلّه بسحناتٍ جديّةٍ لا تبتسمُ حتى لَتَحسبُ حملَتَها يحملون المصائر.

أعلى برجٍ في العالم، وأكبرُ دار أوبرا في الكون، وأضخمُ فندقٍ في الباسيفيك، وأولُّ ملهى على شكل كمثرى، وأولُّ بورصة على شكل معبد. قالوا لي متفاخرين:

«يبدو على قسماتِ وجهِكِ
أنكِ جلتِ في الدنيا
هيئتُكِ توحي بكثرةِ التجارب
ربما سبق أن رأيتِ
مبنًى بصورةِ حذاء
وربما صادفتِ
آخرَ على شكلِ قارب،
ولكن عندنا فقط
فقط عندنا
شُيِّد أوّلُ مبنى
على شكلِ جوارب،
ربما وقعَ نظرُكِ

على مكتبة رقمية
فريدةِ الشكلِ دائرية
تطلُّ الكتبُ فيها
من ورقِ الجدرانِ
والقارئ غائب
ربما مررتِ بمدخلِ متحفٍ
على شكلِ هرم
ولكن عندنا فقط
فقط عندنا
يشيد برجا توأمٍ
على شكلِ شاربٍ...»
أطول، أعرض، أول، أكبر
مرحى للخواءِ في الأبعادِ
عاشَ تجَوُّفُ الأمجادِ
المجدُ والخلودُ للفراغِ
يمسخُ الهدوءَ صفيرا
وأنا الصفيرة الضئيلة الأخيرة
أبحث عمّا يدفئ ركنا
في الروحِ، وفي السريرةِ

تَلَوَّن الناسُ والأشياءُ بمراهقة استعراضيّة لا تنضَجُ مع الزمنِ، مراهَقَةٍ مقاوِمَةٍ للزمنِ. لا تؤثر فيها سنُّ أصحابها. فمن أين يجدُ مدخلاً إليّ؟

جاءوا بعجل ذهبيٍّ
طافوا به في معابد التسوّق
وصنعوا لاستهلاكِ البشرِ
رسما وتمثالا...

لم يُغنّي محترفو النّجومِيّةِ على التغلب على الحلمِ بكوكبي المنطفئِ الشّاحب. لم تَسْتُرِ «الماركات» من تغطّى بها... الرّوعَةُ الأَخّاذَةُ المقتنَاةُ، لم تسلِبْني من نفسيَ التّواقةِ إلى الحسنِ والجمال.

ليس الهدوءُ هنا سكينةً، بل فراغٌ يمتصُّ عقلي.

من لا تميلُ إليهِ روحي
لا تحبُّه حواسي
لا يهوى جسدي
إلا ما تعشقُ نفسي
الآنَ أستعيدُ نجواهُ،

أمّا بهاؤُكِ فازدهر
وتفتّح حسنُكِ ونَضُر

وخدّاكِ تورّدَا أكثر
وازداد جيدُكِ حسنا،
وأنفُك أنَفَا
وجبينُك تِيها
وكتفاكِ الصّغيرانِ تحدّيا
في حملِ صدرِك إليّ...

ماذا يفعلُ الآنَ؟ أين يستيقظُ؟ متى يهجعُ إلى مضجَعِهِ؟ ينثُرُ أحلامَهُ دوني هباءً، ليس من يسمَعهُ يَتَنَفّسُها في اللّيل.. أين يجلسُ؟ مَنْ أصحابُهُ، يبذّرُ أنفاسَهُ عليهم دونَ أن يُحصوها؟ على من يضيّع نظراتِه؟ لماذا يحقّ لهم أنْ يصغوا إليهِ دونَ أن يستَمِعوا إلى نبضِ عينيهِ فتذهَبُ كلماتُهُ سُدًى؟ على من ينفقُ ما تبقّى من عُمرِهِ وَعُمري؟

الأصحاح السابع

قال لي:

كم أنتِ جميلةٌ

وصالُكِ يميتني ويُحييني

يوجِعُني ويَشفيني

يُشعِلُني وَيُخمِدُني

يضيئُني بِضَوءٍ خافِتٍ

يحوّلُ سمرَتَكِ شحوبًا

اكتمالُكِ دائِريٌّ حولَ نُحولِكِ

ونحولُكِ شفّافٌ

يُبرِزُ وِركينِ

في الطّريقِ إلى إشراقَةِ وَجهِك

أطلقتُ لتوّي نهديكِ من سجنِهما

فتدفّقا بصمتٍ يحضناني...

تجمعين ثَغرَكِ
وتضمين شفتيكِ
وتغمضين عينيكِ
في بسمةٍ تترقّبُ القُبلَةَ
تذوبُ قبلتي عليَّ
ببلاهة
مثل مُثلّجاتٍ على ثوبِ صغيرٍ
تعثَّرَ بين شهيّةٍ
وسوءِ تدبيرٍ...

نولِمُ وليمةً للحبّ ضيفِنَا، طَوالَ اللّيلِ نوليهِ عنايَتَنا، حتّى يجلوَ صَحوَهُ الصُّبحُ، نسامِرُهُ ونكلّمُه، نتجاذبُ معهُ أطرافَنا، ونتبادلُ مَعَهُ كلَّ شيء.
تشرقُ الشّمسُ على بلدٍ لجسدين، وعلى جسدٍ واحدٍ من بلدين. نستيقِظُ على كلِّ الشّتاتِ، وقد التأم هُنا لاحتساءِ القهوةِ مع الحبّ عندما ينهض.
يهمسُ في أُذُني:
من ليلِ شعرٍ أسودَ كثٍّ، ينبلجُ صبحُ محيّاكِ الهادئِ الباسِم. شفتاكِ غيرُ مصنوعتينِ من سيليكون.

أناملُكِ ممشوقَةٌ تشتبِكُ مع أصابعي حول خصرِكِ الضّامِر.

يسترخي عند الشّروقِ ثمَّ يتهالكُ ضيفُنا تعبًا. يتفصّدُ عرقًا طَوالَ النّهارِ وهو نائِم. نتفقّدُهُ، نجسُّ نبضَهُ نائِمًا، نبلّلُ شفتيهِ، نرطّبُ جبينَهُ ونطمئِنُّ عليه.

حُبَّنا

كفافَنا أعطِنَا اليومَ

ولا تُدخِلْنا في التّجارِبِ

لكِن نجِّنا مِنَ العَدَم

عقدوا العزمَ أنْ يكدوا في البحث عن اعترافٍ وعن ثروةٍ، وشهرةٍ، وشأن، ومقامٍ، ومنزلةٍ، وقوّةٍ، وبأس، واستعراض، ومشهد... ونحن نسكنُ عند هذه اللّحظة.

عقَدْنا العزمَ ألاّ نبرحَ هذا الصّباحَ

قال لي بعد أوّلِ رشفةٍ:

في الفجرِ، ما قبلَ الشروقِ

حين أشرقَ وجهُكِ

ناجيتُ ابتِسامتَكِ القمحيّةَ

مبسمَك الحزينَ

حزنَكِ النّاعِمَ المخمَلِيَّ
حريرَكِ، زهرَ شفتَيكِ
ليلَ عينيكِ
قدَّكِ السّماوِيَّ
جذعَكِ الأرضِيَّ
فروعَكِ الحزينَةَ
أوراقَكِ الفَرِحةَ
ثغرَكِ، لؤلؤَكِ، عاجَكِ، شَذَاكِ
رحيقَكِ، شَهْدِيَ الذّهَبِيَّ أجمعُهُ...

مُنذُ ما بعد الصّباحِ، أتأمّل
ذوقَكِ، ثيابَكِ، أناقَتَكِ
رونَقَكِ، مِشْيَتَكِ، ضِحْكَتَكِ
صوتَك، سهوتَكِ، صفنَتَكِ
حُزْنِيَ البَهِيّ
حُبُّكِ المستحيلُ
يقينيَ الوحيدُ الأكيدُ...

دثّريني وانسُجي لي شَرنَقَةً
تتّسِعُ لي رحِمًا في فضاءٍ شاسِعٍ
يضيقُ بي
سِجنُكِ حُرّيّتي الأبدِيّة
حُزنُكِ جَزَعي
بُستانُكِ بيتي
صفنتُكِ أَرَقي
أينَ أضَعُ رَأسي؟
على أيّ ضفّةٍ منكِ أستَنِدُ
كي تظهرَ لروحيَ البلدُ؟

أَسأَلُهُ عمَّا يبحثُ هنا في بلادٍ لم تُنبِتْ غيرَ الأنبياءِ وجاحِديهم، وشهادَةِ الزّورِ والاستشهاد.
أنبتَتْهُ وأنبَتَتْني. وأنبَتَتْ مَن مِثْلَنَا يبحثونَ عمّن مِثْلِهم، وعن حياةٍ تستَحِقُّ أن تُعَاش. لا ذنبَ لأرضِ هذا الشّجَرِ بالرّياحِ العاتِيَةِ الّتي تَهُبُّ عليهِ. عبثًا يحاولُ أَنْ يحتوي العواصِفَ ببنائِهِ لها بيتًا يأويها. سكنته بدل أن تعيشَ إلى جانبه بهدوءٍ وسكينَة.

قال لي:
أنتِ طلعةٌ بهيّة
تضيءُ زواياي القصيّةَ
في صباحٍ
لا تشرقُ فيه شمسٌ عليّ
مضى الزَّمانُ ويمضي
وجمالُك
لا ينقَضي
شمسُ وجهِكِ دافِئَةٌ،
لا تأفُلُ عنّي
وحدَكِ تُؤنّبين سأمي
تنبّهينَ احتجابي
إلى ما يلغي انسحابي
انهرتُ بين يديكِ
فتناثرْتِ أنتِ عليَّ
وملأتِ مسامّي،
تسلّلتِ إلى يقظتي مثل سهوةٍ
ولطّفتِ قيظي مثلَ نسمة باردةٍ
هبّت فأحيت كلَّ قفرٍ

نسيَهُ الله فيَّ...
وضعتِ يديكِ الصّغيرتينِ
على أُذُنَيَّ
وضممتِ غضبي إلى صدركِ
تروّضينَ ثورةً بهمسة
وتسحرين عاصفةً ببسمة
وحين جلستِ إليَّ
انثنت الأعاصيرُ
نسائمَ تدغدغ قدمي
وتلعقُ قدميكِ
كأنها جروٌ صغيرُ

مستحضِرَةَ الأحزانِ
نفسي حبيسةُ أضلاعِك
قلبُكِ يخفِقُ
مثلَ عصفورٍ في صدري
تمسكينني عند الانهيارِ من الانهيار
تحمينني من الخرابِ
تحفظينني من الفسادِ

حينما يحيطُ بنا من كل جانب
ينمو الحبُّ كلّما منحتُهُ
وتتضوَّرُ شهوتي كلّما رويتُها
وأجدُ نفسيَ بين يديّ
كلّما بين يديكِ فقدتُها
ولأنّي دونَكِ لا أذكُرُني

حسِبتُ أنّي لم أكنْ قبلَكِ
وقبلي لم توجَدي
ومذْ خطر لي
أنّكِ كنتِ
قبل أن تلتقيني
كما كنتُ
قبلَ أنْ ألتقيكِ
تمتلكني الغيرةُ
لا ترخي قبضتَها
استولى عليّ زمنٌ في حياتِكِ
لم أكن فيه لكِ
ولي لم تكوني

أغارُ حتّى من زمنِك
الفارغِ منّي...

لا أغارُ باكرًا
فأنا أستيقظُ عاشقا
لا أغارُ عندما نجولُ
بين المراعي والكرومِ
في السهولِ وفي الهضاب
ولا حينَ نجمعُ فرحَنا حفاةً
على حافّةِ الأوديةِ الموسميّة...

لا يغارُ عليّ في الصّباحِ وفي الطّبيعة،
الغيرةُ ابنةُ التّفكيرِ في نهارٍ ليس لَه.

الأصحاح الثامن

قالَ لي:
تعبتُ كما وَعَدتُكِ. المكانُ الّذي لستِ فيه لستُ فيه... غادرني معنى الحركةِ في المكانِ، فعدتُ ولم أجدْ لي نقطةً في هذا الفضاءِ أنسحِبُ إليها، أنكفئُ عليها، أتحجَّمُ فيها.... لم أعثر على ما أغلقُ علينا بابَهُ لحياةٍ صغيرة.
خلعتُ ثيابي، فإلى أينَ أخرُجُ منهُ الآن؟! انتزعتُ روحي وزرعتُهُ مكانَها، فأيُّ هاويةٍ ستفغرُ فاها في نفسي إذا اقتلعتُه منّي؟!
خلعت ثيابي
فلم يتركْ جسدي عاريًا
منهُ
هُوَ لي وأنا لَه،
لن يتركَ مشجبي عاريا من ثيابِه

ليأخذني إليهِ حيثُ يكونُ
فلن أعودَ في هذا العمرِ
لارتداءِ ما نزعتُ عند بابِه
وَقَفْتُ له الروحَ مشرعةً
وأسكنتُهُ فيَّ
وقَصَرتُ عن منحه
كما عجِزَ عن منحي
نقطةٌ في فضاءِ البلادِ
يغلِقُها عليه وعليّ
صارحني أنه عندما عادَ من غربَتِهِ فقدَ وطنَه. لم يتعرّفْ إلى بلادِهِ داخِلَ الحدودِ. وغادَرَ. مضى دونَ أنْ يَخدَعَني. وتَبِعَتْهُ العاصِفَةُ.
سَحَبَ جَسَدي من روحي. سَحَبَ روحي من جَسَدي إليهِ عبرَ الحدودِ.
أبحث عنه، ولا أعثرُ عليه بين أنقاضِ قرى السَّاحِلِ.
أخرُجُ إليهِ، أمدُّ يدي لألاقيه. أتسلّقُ الشمالَ.
أعبر وادي عارة، وأنزِلُ من إسكَندَرَ وأعبُرُ سهلَ مجيدو لأعلوَ الكرمِلَ، أعبرُ أمّ الزينات وأقف عند

المحرقة لأُناديه، أعبرُ بلدَ الشيخ ووادي الصليب، ومسجدَ الاستقلال، وساحةَ الحناطير، وسوقَ الشوام، وشارعَ الملوك، والألمانيّة صعودا إلى مار إلياس لأناديه. أجتازُ مرجَ ابنِ عامِرٍ إلى جبلِ الطُّورِ ثم مسكنة وحطين، أقطعُ الشّاغورَ من جامعِ الجزارِ وشاطئِ عكَّا حتَّى جبلِ حَيدَر، ومن جبلِ حيدر إلى صفد، عودةً إلى ترشيحا مرورا بدير القاسي وكفر برعم وسحماتة، ومن معليا إلى الزيب مرورا بإقرث، ومن البصّة إلى الناقورة.

وأجمد هناك

بين الجليل وهدير الموج

يبتلع البحرُ صوتي

سمِعوا صَوتي في جَبلِ لُبنانَ

في هضبةِ الجولانِ

في قاسيونَ والجلعادِ وعمونَ

وانْخَرَست جنباتُ البِلادِ عن رجْعِهِ

كنتُ أعثرُ عليهِ

منهكا في الطَّريقِ

عائِدًا من هوامِشِ البلادِ
إلى هوامِشِ البلادِ
كنتُ أعثرُ عليه في المهجِ
في الوجدِ، في الوجدانِ
في الانصياعِ للحرجِ
هناكَ حيث يستجيبُ مسايرا
لما لا يرغبُ
من هرجٍ ومن مرجِ
في العزوفِ عن خصومةٍ عبثيةٍ
عافها رغمَ توفرِ الحججِ
في الصبر على حديث فارغٍ
تأدبا، بانتظار الفرجِ...

حيثما وليت وجهي
أعثرُ على أثرٍ له
حيثما وجّهت نظري
لا أعثرُ له إلا على أثرِ
حتَّى الحرجُ باتَ يُحرِجُهُ

أفلَتَ من خجَلِه

ومضى

توهّجَ فيّ جمرًا

فأرخَتْ قبضتَها البلادُ وأفلَتَتْهُ

استَعَذْتُ بكنّ يا بنات العَربِ

أيّتُها المتجمّعاتُ فضولاً

مثلَ عنقودِ العنبِ

أنْ تبلِغَهُ من تَراهُ

أني عييتُ من البحثِ

في السرابِ

في الأرض اليبابِ

في الخرابِ، في الكتُبِ

أن ضيقي ضيقَه يسعُ

أَنَنْتظرُه هنا في ضيقيَ الرحبِ

يجدني هناك حين يلهثُ

في لحظة التعبِ

حيثُ يقفُ ليلتقطَ الأنفاسَ،

يَلتَقِط نَفْسِي

إذا عرَّجَ طرَفا لسدِّ رمَقٍ
لا بدَّ أن بالطرْفِ يرمقَني
وحين يسقطُ مرهقا،
يجدُني على الأرضِ الوثيرةِ
أحتضِنُهُ

لن يذهبَ بعيدًا
فهو لا يذهبُ إلى حيثُ يهدَأ
وإلى حيثُ يرتاحُ لا يندفعُ
وبعدَ حينٍ يهجعُ
حينَ يأمرُ البدنَ
فيأبى ذاك الشقيُّ ويمتنعُ

هو أزهارٌ صغيرةٌ تكسو الصخورَ، سجّادةٌ حريريّةٌ من طحالبِ الصوّانِ العنيدة تطمئن كفّي يدي.
صحراءُ يانعةٌ، قفرٌ مزهِرٌ، أجملُ من أغوارِ الأردنّ القاحلةِ وقد أطلقَت ربيعا ومراعيَ في نهاية آذار.
هو أقحوانُ التلالِ

كما انطبعت في خيالي
فلُّ ساحاتِ البيوت
شذا الأيام الخوالي
سنديانُ الجليل
ياسمينٌ تدلّى من شبابيكِ البلادِ
شهوةُ البلادِ إلى ذاتِها
حزنُ الروابي على روابٍ
يستحيل عليها احتضانُها
توقُ المراعي للسحابِ
حقُ السؤالِ عن الحقِ الذي
ناء بحمله أولو الألبابِ
شوقٌ إلى زمنِ المدينةِ
في الشتاتِ وفي الغيابِ...

حامي البلادِ من الحدودِ
ومن حرَسِ الحدودِ
هو لي وأنا له
أشتهيه كما هو

مرارةُ البلادِ حلاوةٌ على شفتيه
اليومَ، لم أعِدَّ قهوةَ الصباحِ
ولم أقرأ الصحيفةَ
لم أستقبلْ معه نهارا آخرَ
قال لي:
حتى عندما لا تداعبُ أنفاسكِ أنفاسيَ، عندما لا أرى خيالَك بأعينٍ مغمَضةٍ، عندما لا أُحِسُّ بكِ في نومي، لا تخشَي أن يوقظَني أحدٌ غيركِ.
قالت النّسوةُ في مقهى مجمّعِ التّسوُّقِ: هربَ حبيبُكِ، هل أدارَ لكِ ظهرَه؟
هرب متراجعًا وَوَجْهُهُ لي
وعيناه على جسدي
ما أدارَ ظهرَه يومًا لصدري
لوجهي، لعنقي، لمقلتيّ
لطعمي، لرائحتي
لخدّي المخمليِّ
أشمُّ رائحتي عليه
أحبُّ طعمي على شفتيه

منفيًّا على خاصِرَتي
يقرأُ ربيعًا في جَسَدِي
يجمع شذايَ مثل فراشة
ورحيقي مثلَ نحلة
يطعمني ويسقيني
يغسلني، يدثّرني
وينشرني ويطويني...

الأصحاح التاسع

أخي يلحُّ على الزَّواج، وما زال فتًى يافعًا... اختار قلبُه حسناءَ من شتاتِ البلاد؛ لم يمنحوها إذنَ دخول. ولم يمنحوه إذنَ خروج.

من يتدبّرُ أمرَ حبِّ أخٍ
حاضرٍ غائبٍ قاصرٍ
من يتدبّرُ
أمرَ حبّ عابرٍ للحدودِ
غيرَ آبهٍ بالحصارِ
لفتاةٍ في الجوارِ؟

بعدما خيَّمَ الظلامُ تفرَّقَ العبادُ إلى مخادِعِهِم. وتسلَّل هو إلى بيتِنا حاملاً فرحَ أخي.

عقدْنا القرانَ وكنَّا الشُّهودَ
وكنَّا العُقودَ
وَكُنَّا الوُرودَ

وكنَّا الخواتمَ
كنا العهودَ
وأنشدَ سليمانُ
مُغنّي أعراسٍ قديم
«رُمَّانكْ يا حبيبي
يا حَبيب قلبي ونَصيبي
رُمَّان صديرَك فتَّح
يا رِيتُهْ من نصيبي ...»
نشيدُ ربيعٍ خصيبِ
لبعثِ تمّوزَ الأولْ
دعوةٌ للإلهِ من الغيابِ
من العالم الأسفلِ
كثيرُ الغمارِ قليلُ الطيوبِ
جمّ النعوتِ شحيحُ الصُوَرِ
جُلُّ ما يبلغُ من الشعرِ
في ذُروةِ السُكْرِ
نظمُ أعضاءِ الجسدِ
كأصنافٍ من الثمرِ

ليشتهيها متنقلا
بين قرض الشعرِ والقرضِ...

عثر صوتُ زُرّاعِ السهوبِ
في مهاوي النفسِ
على أذنٍ طروبِ
ما غضبَت،
ولا نفرَت من الشعرِ السليبِ...
فقبل أن تسرقَ شواهدُ
الزمنِ القريبِ
قبل أن تصادرَ القصائدُ
لتنظمَ بتحقيبٍ عجيبٍ
قبل أن يُؤمّمَ الماضي
لتوطينِ تاريخٍ غريبٍ
كان الأصلُ والمنحولُ والمنقولُ
مكتوبا وغير مكتوبٍ
كان النّشيدُ في بلادنا
مجلوبا وغير مجلوبٍ

مجرّدَ أغانٍ عربية
تنظِمُ أفراحَنا
وتنشدُ أعراسَنا
ليس تبجحًا،
ولا للتفاخر بالهوية
بل بالسوية والسجية
من أجل الحبيبة والحبيبِ
حتى تزفهما سويّة
تحمي معانيها
وتحفظ ذاتها
في اليسرِ
وفي الظرفِ العصيبِ
أن نغنّي كان يعني
أن نحبَّ
وأن نرقصَ كان يعني
أن يتمتمَ الجسدُ
بصوتٍ خافتٍ
أن يرافقَ اللحنَ
بلغة الجسمِ

أن يدنوَ مع النغمِ
من ذاته ويبتعدُ

اختَتَمْنَا حفلَنَا السّرِّيَّ
وقالَ قبلَ أنْ يتكلّمَ...

شفتاكِ أوّلاً،
لأسدَّ رمقي
ثم البقيّة
هدهدي شوقي
قليلا
دعي الشوقَ ينزَلِقُ
من وجهٍ باسمٍ يندهشُ
إلى عاجِ عُنُقٍ ينفعلُ
ويسترخي وينكمشُ
وكتفٍ رخاميٍّ يلينُ
لوقعِ قُبَلٍ تُوَشْوَشُ
دعيني أُقبّلُ ظهرَكِ الصّافي
فأنا لا أتحرّشُ

بل أوقظُ فيكِ صدرا
لا يُذهَلُ
لملمسِ الأناملِ يرتعشُ
وثديين رابضينِ
ينهضانِ فضولا للتأكّدِ
من أن الأرضَ مكسوةٌ حبا
فتُفتَرَشُ
واحدةٌ أنتِ
لا مثيلَ لكِ في النّساء

واحدٌ،
لا مثيلَ له في الرّجال
ما افتَرَقنَا في حياتِنا
إلاَّ لكي نلتقي...

نلتقي عند نُوَّارِ اللَّوزِ
في زمنٍ آخرَ للبلادِ
ومواسمَ عديدةٍ للحصادِ
حيثُ ما زال الرَّبيعُ ربيعًا

والخريفُ خريفًا
حيثُ الوردُ أقلُّ لونًا
وأكثَرُ أريجًا
عند آخرِ ليالي الصَّيفِ
إذ تنبعثُ من الفجرِ
كلُّ ألوانِ الطَّيفِ
كلُّ أطيافِ الأحمرِ
حيث يسعدُ بالنظرِ
من بين جميعِ البشرِ
اثنانِ، مجرّد اثنيْن
ساهرين

نلتقي حيثُ ننتشي
بنسماتٍ زرقاءَ
تحملُ رائحةَ عناقيدِ التِّبغِ المنشورِ
والتّينِ المجفَّفِ
وطعمَ الشَّايِ المحلَّى
والجبْنِ المُمَلَّح...

مكتبة
t.me/t_pdf

كانَ يعدو صامتًا في النَّهارِ
وصارَ ليلُه أرَقًا وقلَقًا
وضِيقًا ووقْعَ حوافر...

اهرُبْ يا حبيبي
وَلأَسْمَعْ صَهيلَكَ تعدو في البراري
إلى أَنْ تبيتَ إِلَيَّ
فأسمعُ نفَسَك رتيبًا
وأطمئنُّ لنومِك

نشيد الأنشاد الذي لنا،
هو وهي وأنا.

ما بعد، الذي هو ما قبل...

هوامش على الأصحاح الأول

أومأ القدَرُ باسمًا غيرَ مكترثٍ.
على قَدَرِ أهل الضّنكِ حلّتِ الأقدارُ.
عبثًا حاولت أن أردَّ على بسمة القدر الساخرةِ بمثلها، أن أهزَّ كتفيّ أنا أيضًا دون مبالاة، يَبِست، ناءَتْ كتفايَ بعدمِ اكتراثي، كما في نهايةِ حلمٍ جَمَدَتْ فيه رجلايَ إذ أُحاوِلُ أن أحرِّكَهُما لأهرُبَ من شرٍّ مستطيرٍ فلا تطيعاني.
كان الشوقُ ساكنا في اللقاءِ، إن عوّل أم لم يعوّل عليه.
بعد أن مضى الوهمُ تأكّدتُ أنّه يحبُّني. ولكن، لم تعدْ هذه الحقيقة تُسْعِفُني.
مصدر حَوْلي وقوتي، أنّ ما حولي أيضًا فقدَ معناه.
وحيلتي، أنَّ الواقعَ أوْقَعَ بيني وبينَ السّعْيِ في الدُّنيا.
أمّا هُوَ فأينما التفتَ أحاطَت بمسارِهِ ومصيرِهِ سحناتٌ

منـزوعةٌ منها الحياةُ. مسلوبٌ لا يذكرُ من أمرِ أمرِه شيئا.

لا يذكرُ إلا أنّي زممْتُ كلَّ حروفِ شفتي أدعوهُ لقُبلة.

منذ أن ولّى الوهمُ القديمُ انفصلَ الحزنُ عن الفرحِ. وتشابكَتِ الخيبةُ بالرضا.

لم نعد نحظى بطعمِ فَرَحٍ دّامعٍ أو دّموعٍ فرِحَةٍ. وتطلَّقَ الحزنُ الشاحبُ الذي بقي في النفس من الفرحِ الباهتِ الذي رسبَ فيها. وسلَّم أحدُهما بلا-شخصيّةِ الآخرِ المستقلّةِ، وتبادلا التحيّةَ مجاملةً مثل واجب.

حتى الرِّضا بات يخجلُ فيظهر مقنَّعًا بالإحباطِ، متظاهِرًا بعدمِ الرضا، أما الخيبةُ فتتنكَّرُ بأسمالِ الاكتفاءِ والقناعة.

كنتُ في زمانِه أميرةَ وجدانِه، ملكةَ جمالِه، سيّدةَ خيالِه. عدتُ في لا- زمني هذا أتواجدُ وأتجمّل، ولا أتخيّل.

قبل أيامٍ رافقتْني خادمتي لرعايتي بعد عمليّةِ تجميل، لم أستغنِ عنها في غرفةِ المشفى. أبلغتْني صديقةٌ مجرّبةٌ أنّ الخدمةَ المقدَّمةَ لا تكفي. أصبحتُ بعدها أجملَ امرأةٍ في المرآة.

لا أذكرُ متى أصبحَ الصمتُ قدَري، ومتى صار صمتي عجزًا عن الكلام. أدري فقط أنّي لا أجدُ في جعبتي حفنةً من كلامٍ، حسنةً لأيٍّ متسوّلِ كلماتٍ.

ها نحن نديرُ ظهورَنا لأزهارِ الأرض، حتى بعضُنا لبعضٍ.

ضغطْنا الوردَ بين صفحاتِ كتُبٍ بالية. جفّتْ حتى سخريتُنا من الوردِ المجفّفِ، ومن تجفيفِ البشرِ في خدمةِ قضيّةٍ ضدّ أهلِها.

بتنا نجلسُ بصمتٍ في مجالسَ تصنّفُ البشرَ المجفّفَ والمدخَّنَ والمخلّل والمملّح والمقدّد؛ بعضُه ناجحٌ، وآخرُ لا بأسَ به، وثالثٌ «يتكلّمُ جيّدا، وإن كنت لا أتّفقُ معه»...

استسلمْنا للمربّعاتِ وللدوائرِ في نفوسِنا، للأشكالِ الهندسيّةِ في أرواحِنا، لانعدامِ الشكلِ في حواسِّنا، ولفوضى الأشكالِ والألوانِ في عقولِنا.

كنت أحبُّ لوني داكنًا
عندما كانت تلوِّحُني
سوداويّتُه المتفكِّرةُ الحزينةُ
مثلَ دخانِ الحرائقِ بعد غارةٍ

مثلَ ثيابِ الحِدادِ تغمرُ قريةٌ جنوبيّةٌ
واقعةٌ في شمالِنا
أو جنوبِنا
بعد أن مرّت طائراتٌ
في طريقِ العودةِ
إلى قواعدِها سالمة
كنت أزهو بألواني الزاهية
عندما أنعشَتْها قبلاتُه الضاحكةُ
فرحتُ بلوني منتشيًا وهو يعانقُني
غيرَ مصدّقٍ أنّه أخيرا وجدَني
أصبحتُ أكتسبُ لونًا على الشواطئِ معَ المتسكّعين
والمتسفّعين...

ازدحمتْ ضحايا الطّائرات
تعثّرَ الناجون بأشلاءِ أحلامِهم
اغبرَّ العنفُ مشهدًا وصورةً
زادت رتابة العنفِ وطأتَه على نفسٍ حساسة، وخفّفتْ
رتابتُها وطأتَه على نفوس تتبلد في حضرة الرتابة.
غارتْ تعابيرُ المواسم. فقدتْ معالمَها الفصولُ.

صارت مواسم كثيرة مثيرة. أصبحت الإثارة رتيبة، فانقلبت الكثرةُ واحدا.

صرت أشيحُ بوجهي سأمًا عن كلِّ شيءٍ إلا عن وهمِنا.

هوامش على الأصحاح الثاني

كنتُ نكهةَ بساتينِ تلك البلادِ قبل مرحلةِ الأسمدةِ ومبيداتِ الوقايةِ الشاملة.

أصبحتُ أنا مجرّدَ أنا. وأنا أنا، أزورُ الصيدليّةَ دون وصفةِ طبيبٍ غالبا. أجدُ سعرَ الدواءِ وقِحًا بذيئا في بلادٍ لا يُعالَجُ ميسوروها فيها. وفي طريقِ العودةِ من الصيدليّةِ أحاولُ أن أعثر على أفكارٍ ذات معنى تأخذني قليلا من الصفنة المشدوهة سيرا وسطَ ازدحامِ الأرصفةِ كقولِه لي: إنَّ غيابَ التأمينِ الطبيِّ كارثةٌ وطنيّة.

يحميني شرود الذهنِ من ملاحظةِ ما حولي في القبحِ والازدحامِ. ولا تثيرُ فضولي معرفةُ سببَ تطفلِّ المتطفّلين.

كان المستقبلُ عودةً.

في بلاد تستكثرُ الأمُّ أن تُسقِطَ رأسَ وليدِها عليها أصبح المستقبلُ إنجابًا بوحدةٍ، وآلامَ مخاضٍ، يستمعُ

إليها الزوجُ على الهاتفِ من بلادٍ بعيدة. المستقبلُ أن تلدَ الأمُّ مولودَها ما وراءَ البحارِ من أجلِ جوازِ سفرٍ للوليد.

أتخيّلُه وحيدًا يثيرُ حسرةَ أيِّ شخصٍ عمليٍّ منَ النوعِ الذي يتسلّى بالعواطفِ ضرْبًا منَ التغييرِ.

أتخيّلُه وحيدًا يستدعي عن قصدٍ سخريةَ الناجحين الذين تدبّروا أمرَهم في هذه الحياةِ ليستفزَّ نفسَه، وليُثبتَ لهم بأسلوبِه المشوَّهِ الملتوي أنهم غيرُ مهمّين.

مالَ دائما للنسيانِ أنّ أمَّه وحدَها كانت تهتمُّ عندما يؤذي نفسَه.

لا بدّ أنه يسخرُ الآن من ذاته ومن عطفِ مَن تبقّى من شبابٍ رومانسيّين عليه إذ يبحثون عن معنًى. لا بدّ أنه يسخرُ من ذاته ومن النساءِ اللواتي تبنّيْنَه للتظاهرِ بالثقافةِ في نهايةِ الأمسيةِ بعدَ أن أعياهنَّ الرقصُ وتوزيعُ الابتساماتِ اللامنهجيّة.

أبى أن يبنيَ بيتا على قسيمةِ أرضٍ من «أملاك الغائبين». ولم يجدْ بعد ذلك مكانا.

أصبحتِ الخصوصيّةُ الفرديّة امتيازا، والعزلةُ حصريّةً للأفراد فقط إذا كانوا غزاةً.

هوامش على الأصحاح الرابع

طوى الزمنُ امرأتَه
طواني
اندثرتُ مع عالمِه
تبدّدتْ فتاتُه التي يهوى
مع عالمِه الذي هوى
وخلفَّ وراءَه نسلا يريدُ التحرّرَ منه والتمسّكَ باستخدامِ ذكراه إمّا للتباهي، أو لغرضِ الاستثمارِ في مشاريعَ اقتصاديّةٍ.
خلَّف عالمُه شخوصا وشخصيات صارت ممثّلين يلعبون بعد السقوطِ دورَ ذاتِهم في أفلامٍ عن مرحلتِهم.
بلادٌ قطفتُ منها
كنت مزروعةً فيها
إمّا أن أتململ في السرير حتى الظهيرة،

أو أدخلَها كلَّ صباحٍ سائحةً
بجوازِ سفرٍ أجنبيّ

أرتجفُ بردا من هواءِ المكيّفاتِ في بلدٍ يتلهّى قيظُه بفنٍّ طهيِ النفوسِ، وبخَبْزِ رغبتي في الحياةِ على نارٍ غيرِ ذاتِ لهب. خجلتُ أن أواسيَ نفسي بالحديثِ عن وهني وقلّةِ تحمّلي لأحدٍ من معارفي الناجحين في حياتهم...هذا رغمَ أنهم لطفاءُ لأنهم مرفَّهون، وحياتُهم تحتملُ التظاهرَ بالإصغاء. ولكني لا أرغبُ في التظاهرِ بالكلام.
هاجرَ الشتاءُ الجميلُ، وبقيَ من الفصولِ البيتُ والمصعدُ والسيارةُ وهواءُ مجمّعِ التسوّقِ الراكدُ. حفلاتُ الاستقبال، ساندوتشاتها الصغيرة، «كنبيه» بطعمِ لا شيء. أنجزت شركةُ تنظيمِ المعارضِ والحفلاتِ والمؤتمراتِ بنجاحٍ مهمّةَ ملاءمةِ ألوانِ السندوتشات للونِ ورقِ الجدران. لكنّها تبقى أكثرَ طبيعيّةً من بسماتِ المضيفاتِ والمضيفين والروّاد.
يحسنون إبرازَ رأس جبل الشبَقِ فقط بشكلٍ مخففٍ ملطفٍ غير مبالغٍ فيه من تحت المجاملاتِ المهذّبةِ

غيرِ المؤدّبةِ مثلَ مضيقِ نهدين يكشفُه فستانُ سهرةٍ يتفنّنُ الرجالُ بالتظاهرِ بعدمِ رؤيتِه بعيونهم.

وأنا راغبةٌ عائفةٌ،

سئِمةٌ متسلّيةٌ

ضجِرةٌ متلهّيةٌ

مواعيدُ بلا زمن

وزمنٌ بلا هُويّة

ضحكتي قهقهةٌ خاوية

مرحٌ بلا فرح

وبؤسٌ بلا حزن

لم يرسبْ فيَّ إلا

طيفُ ما فقدت

كأني أصبحتُ

أنا ما فقدتُ

أنامُ هربًا من يقظتي

أنام لمجرد أني

لن أفوّتَ فرصتي

فأخيرا وُجِدت وسادةٌ

لا يهمني أنها خاليةٌ

أما هو فمستيقظٌ دون معنى إلى غيرِ رجعةٍ وغيرِ غايةٍ، يُضْنيهِ النعاسُ بعيدا عن سريرِه ولا يمكنُه النومُ، أَرِقٌ وتَعِبٌ حتى الموت.

انتصرَ الصيفُ بالنقاطِ وبقوةِ الاحتمالِ على شتائِه الذي يحبّ.

هوامش على الأصحاح الخامس

كانت رؤيتُه تُحْييني. تدفعُ الهواءَ إلى رئتيّ بعدَ انقباضٍ مثلَ دهشةٍ تسرُّ قلبي.

كانت سَكِينتُنا حياةً، صارت سكِينتُنا سكينةً.

لم يعدْ يغادرُني، ولم أعد أتوقّع عودتَه.

صارَ غيابُه غيابي. وصارَ غيابُنا حزنًا.

كان مثلَ زيتونٍ رومانيّ واثقٍ يحسبُ أن بيوتَ المستوطنين نبتتْ على سفوحِهِ فطريّاتٍ. كان مثلَ كرزٍ أحمرَ مُحرَجٍ خجلا على خلفيّةِ بياضِ جبلِ الشيخِ إذ يعبثُ عليه عابثون يتزلّجون على مؤخّراتهم. اقتلعَ المستوطنون شجرَ الزيتونِ القديم. لكنهم عَزَفوا عن متعةِ حرقِه.

تطورَّ المستوطنون فحملوا الجذوعَ مع جذورِها برافعاتٍ على شاحنات. في وضحِ النهارِ نقلوها، ثم زرعوها في حدائقِهم.

عوَّدتْ لغةُ الحقوقِ الناسَ على مساواةِ المستوطنين مع الوليدين. حتى بات المشرَّدون المنهوبون يطالبون بالمساواةِ مع السارقين.

وفيما طالبوا، طالبَ الوليدون أيضا بأشجارِ زيتونٍ لزراعتِها في حدائقهم. فهم «أحقّ بالشجر المقتلَع من أراضيهم».

وفرحَ المظلومون أنَّ ظالميهم لن يشغلوهم بحروبهم، وأنهم لم يعودوا حطبا، وجماجمَهم لم تعُدْ سلّما لمجدِ أحدٍ. وإن لم يتحقّقِ العدلُ، فعلى الأقلّ ساد بين الظالمين سلامٌ.

وانحسرَ هو إلى الأبد.

أعلمُ علمَ اليقينِ أنّ نفسَ هذا الهشِّ المتظاهرِ بالصلابةِ جَزِعَت إذ أدرَكَت أنّ ليسَ بالضرورةِ أن يرثَ الأخيارُ الأرضَ.

أمّا أنا فكنتُ أخبرَ منه بالرجالِ، كنت أعرفُ العلاقةَ بين المقالاتِ والمقاماتِ والمآلاتِ. عرفتها عاريةً. ولذلك صنعتُ خَياراتي مُبْكِرا.

لا تُعزّيني خياراتي حسَنَةُ التوقيت. فحسرتي أني أعرفُه. وأعرفُ أنّه في جزَعِه أكثرُ رضًى مني وحيدةً مع خياراتي.

كنا نهربُ معا من الجمهورِ إلى الكتبِ عن الجماهير. والآن لم ينجُ ملاذٌ من الكثرةِ والجمهورِ ومن تقليعة الثرثرةِ عن الهُوِيّاتِ الذاتيّةِ والنزعاتِ الفرديّةِ والميولِ الشخصيّةِ، وكلّها جمهورٌ في زيِّ الفرديّةِ الموحَّد، إلا النومُ. في النومِ يتوحّدُ المرءُ حتى عن ذاتِه، ويرتاحُ من رغبةٍ في التوحُّدِ تُلحُّ عليه مستيقظًا. ما إن يحقّقُ أملَه ويغدو وحيدا حتى يغيب عن وعي ذاته ولا يغدو. هذه خياراتُ ما يسمّونه مرحلةَ ما بعد الحداثة.

صودِرَ الفضاءُ. وهو امتنعَ عن التّجوالِ في بلادٍ يُدّعى فيها أنّ المهنِيّةَ تعني تجنّبَ الموقِفِ، وأنّ الإنسان العمليّ هو البخيل ماديًا ومعنويًا، وصاحِبَ الاختِصاصِ ليسَ الذي يُبدِعُ في اختِصاصِهِ، بل من يَتَلَطّى عندَ مصالِحِه حين يُضَحّي الآخَرون، والشّاطِرَ من يرعى شؤونَه فقط وينتَظِرُ أن يمتدحَ على ذلك، لأنّهُ يعرِفُ أنّ الزّمنَ أُرهِقَ، والنّاسَ استُنزِفَت،

والحياةَ أُنهِكَت، وتّعَبَ من نَفسِهِ التَعَبُ.

تَعِبَ مِنَ التّجوالِ في أزمِنَةٍ بلادٍ، لا تعني فيها الموضوعِيّةُ الانحيازَ للحقيقَةِ، بل الحيادَ بين الحقِّ والباطِلِ، والكذِبِ والصدقِ. وكنتُ أنتَظِرُهُ وَأَتعَبُ تَعَبَه. وأنا نبّهتُه وحذّرتُه من الناسِ ومن الدنيا. ولكن سيّان إن تحمَّلَ أم لم يتحمّلْ مسؤوليةَ خياراتِه، فكلانا بائسٌ، وهو وحدَه حزين.

لم يعد يتعِبُني الكذبُ، لأني تعبت من هذا التعبِ الذي حَقَنَني به. التلفيقُ أرْفقُ منَ العناد. والتوفيقُ أوْفقُ، والتسويةُ أسْوى، والمشهدُ يشهدُ ويستشهد ويشاهد ويتشهَّد. والوجودُ ليس بالضرورة في الوجد والوجدان بل في الموجود، وفي مجرّد الوجود أيضا. في كلٍّ متحقّقٍ حقيقة. والحقيقةُ نسبيّة. وما دمت أتنفّس فأنا أتنفّس. أصبحتُ واقعيّة.

مكتبة
t.me/t_pdf

هوامش على الأصحاح السادس

إيقاع

زرعَ العشقُ جسدي في روحي،
خالصةً كنتُ له
وكان الحلمُ يتسلّى
تبدّلَ كلُّ شيء
تناثرتِ الدنيا شظايا
أمّا خيالي
فلا زادَ ولا قلَّ...
كنت حالمةً،
وكان الحلمُ عمليّا،
لاحظَ الدنيا وما حلّ
راقبَ الناسَ
فلم يمتْ همًّا

بل ذهب وهمًا
عن قناعِ الحلمِ يستغني
ويتخلّى،
منفيًا خارجَ الجنّة
في الكابوسِ مقصيٌّ
نبذَه عالمُ الأحلام
خلع الشقيُّ الثوبَ
الذي أبلى
على قدميّ رماه الوهمُ
وانسلَّ،
في الرّوعِ لسعةُ بردٍ سرَتْ
في الوجدِ حُمّى،
تدثّر الوِجدانُ
بأسمالِ الذي فلَّ
والعشقُ خلفَ الوهمِ
لازمَهُ كظلٍّ حيثما حلَّ
لا يبرحُ الحلمَ تائهٌ وَلِهٌ
إليه اهتدى
وفي دربِ الرُّؤى ضلَّ

لا يتبدّدُ الوهمُ
حتى حين يتبدّى
يبينُ واقعهُ فلا
يَحُلُّ محلَّ ما حلَّى
ولا الحقيقةُ نائبهُ
لتشغلَ منصبًا أخلى
لا تُبْقِي الحقيقةُ خلفَها
إلاّ
حسرةَ المبتورِ الذي ظلَّ...
تحت أسمالِ الخيالِ
عشقي المحمومُ
عنايةَ رَوْعيَ المفجوع
بالهذيان يَتَوَّلى
يصبر على الصبرِ
مغلوبا
بالصبر يتحلَّى
ويغالبُ الهذيانَ
ليس بطولةً
بل في السر يتمنى

يمنيِّ النفسَ والوجدانَ
أن ينثرَ الحمى رذاذًا باردًا
إنّ من لهيبها ذاك الوجهُ هلَّ
الرّقدُ في عرقٍ
والجفن في أرقٍ
والسهد في قلقٍ
والوجد في ألقٍ
والجسم في شبقٍ
والحنينُ من الحنينِ كَلَّ
العناقُ أُقيمَ عليه الحدُّ
والوصلُ بَتْرٌ مني ملتهبٌ
لا بديل له في الغيبِ والعرفانِ يتجلى
ولا غنى عنه في الرشدِ والبرهانِ
إنّ العقلَ شُلَّ
لا يفُكُّ الخيالَ إلا الوصالُ
ولا يصنعُ الرأيُ السديدُ عناقًا
ولا قبلةً ممزوجةً بالدّمعِ
طَلَّ العناقِ على شفتيّ،
في عينيّ طلَّ،

ربما يستحضرُ الحلمُ صورتَه
قد يُظهِرُ الغيبُ طلعتَه،
إنما،
لا تبلغُ الحلمَ الجموحَ
زكيّةٌ فاحتْ
في كلّ زاوية
من بعضنا، من كلّنا
كلاّ
مهوى خصريَ النحيلِ
ملمسُ خدّيَ الجميلِ
عاصٍ حتى على الحلمِ
هيهاتِ يقطفُ من نهديَّ قُلّة
لم يزرعِ الحلمُ في روحي
سوى جسدي
وحيدا عاريا
لشفةٍ تنسج القبلاتِ عليه حُلّة
تلوّعهُ، تغشّيهِ، تولّعُهُ
حتى يبوحَ بلبِّ الحبِّ
بصلبِ العشق

نازعًا ظلَّه
حتى يفوحَ بعبقِ عشقٍ واحدٍ أَحدٍ
لا شذًى يعطّرُ جزْءَه
حتى ولا جُلَّه
فالتسوياتُ تصدُّها نفسي،
جافَتْ واقعَ الأشياءِ
من سببٍ ومعلولٍ وعلَّة
انزوَتْ في برجِها المسحورِ
عافَتْ مقتضًى للحالِ
لم يَذَرْ للحقِّ ملّة
نفسي العصيّةُ تأبى
أن تنـزِّل ذاتَها جسدًا
حتى أملكَ العشقَ
كلّ العشقِّ
كلَّه

هوامش على الأصحاح السابع

في كلِّ زاويةٍ يكمنُ رجالٌ للجميلاتِ يراقبونهنَّ مثلَ الضباعِ. وأنا أصارعُ بين رغبتي في أن أعرفَ كلَّ يومٍ من نظراتِهم إذا ما زلتُ جميلةً، وبين نفوري من الضباع.

أقرأُ مقالاتٍ لا تنتهي عن القرحةِ وضغطِ الدمِ وفوائدِ الشايِ الأخضرِ ومضارِّ القهوةِ السوداءِ ومزالقِ الـ «دايت كوك». حاولتُ أن أستعيدَ شبابي بملابسَ تُبرز بُعضًا من مواهبي القديمةِ حرمني منها بذوقِه الكلاسيكيّ.

دخلتُ في دوّامةِ الشيءِ والإدمانِ عليه والقراءةِ عنه ثم التعميمِ على معارفَ بالبريدِ الإلكترونيّ.

شعرتُ أني من بعدِه عاريةٌ. لا تدفِئُ خاصرتي كلُّ الأغطية.

وهو بات يوصيني بالبريدِ الإلكترونيّ على صحّتي

وعلى الأولاد؛ ألاّ يبتعدوا عنا كما ابتعدَ غيرُهم عن غيرِنا.

هو فقَدَ طعْمَ كلِّ شيء. وَعُدْتُ أنا وردًا كثيرَ الألوانِ شحيحَ الرائحةِ. في هذا الصيفِ مثلا جُمِعتُ من أرضِ أحواضٍ مغطّاةٍ بالـ«بلاستيك»، ودفيئاتِ فراولة سمينةِ المظهرِ ضامرةِ الطعم. وفي الصيفِ الماضي تمّ استيرادي لأنَّ الاستيرادَ كان أرخصَ منَ الإنتاجِ محليًا.

أصبحتُ واقعيّةً ولذا وجدتُ نفسي دونَه، أو أنا أصبحتُ بدونِهِ ولذا وجدت نفسي واقعيّة. هو يعيشُ في عالمه، وأنا أعيشُ في هذا العالم.

وراجَ في البلادِ أنّ التواطؤَ معَ الظلم واقعيّةٌ ومسؤوليّة، وأنّ الحديثَ بلغتينِ تكيُّفٌ وصمودٌ وشطارة، وأنّ الفجوةَ بين القولِ والفعلِ ليستْ كذبًا بل سياسةٌ، وأنّ الأخلاقَ نسبيّة، وأنّ الفضيلةَ شأنٌ خاصٌّ، وأنّ المهمَّ ليس الهدفَ بلِ الصيرورة. والناس يمثّلون هويّات. والممثلون يلعبون أدوارا .

ضجرْتُ من تعبِه. وها أنا أظهر حيويّةً لا بأسَ بها نسبةً لعمري في التعايشِ مع ما أتعبَهُ.

لم نكن صوفيّين. أما نفوسُنا العربيّةُ فكانت تطربُ

لتلاوةِ القرآن. وكنا نهتزُّ ونتمايلُ واقفين على وقْعِ الترانيمِ الكنَسيّةِ. أصبحَتْ خُطَبًا حادّةً تحرّكُ جمهورا غاضبًا. وأصبحنا مراقبين مشاهدين لا نطربُ لشيء، ولا نجرُؤُ حتى على الحنين.

تعثّرتُ بسياسة خرِبَةٍ قامت على الخراب، وأناسًا خاوين من الداخل ممتلئينَ من الخارج. ممثّلو القضيّة تقمّصوا القضيّةَ. ولم يبقَ خارجَهم ما يتضامنون معه. اختاروا من حزني ما يخدمُ الوزنَ أو القافيةَ أو الجائزةَ وترفّعوا عنِ البقيّة. توَسَّلَت النجومُ المآسيَ لكي تتلألأ... وكلُّ المنشغلين عن الحياةِ بينَ الولادةِ والموتِ حاروا جوابًا أين اختفى.

وأنا غادرتُ غيابَه والتفتُّ عنه، وبتُّ أتساءلُ عن سخريتِه من الإعجابِ بقصصِ النجاح وبالنجوميّة. ما عيبُهما؟ كان كلّ شيءٍ يلقى عدمَ اكتراثٍ لديه. لم يعد يُثِيرُ انفعالَه سوى الغباءِ المتذاكي بالكذبِ، والظلمِ اللاحقِ بالأطفال.

في الليلِ مهدّئاتٌ ومسكّناتٌ، وفي الصباحِ منشّطات. أنا هنا بلا زمنٍ. أيقظني غيرُه في الصباح. شُفيتُ من الغيرة عليه، ولم يعُدْ يشغلُني من ينبّهُه صباحًا.

هوامش على الأصحاح الثامن

أخرجتُه مني، فلم تفغرْ فوهةٌ فاها. لا يحسّ الفراغ بالفراغ.

كان بيتُنا... حافظنا على الحلمِ بعد ما صارَ بيتُنا دمًا وطينا، وجدرانًا ومعسكراتٍ مسيّجةً محاطةً بأبراجِ حراسة، وطاقةً فتحتها له في هذا الفضاء لكي يسترقَ النظرَ إلى حسرتِه الأبديّة.

مضى الحلمُ وهمًا. وصار بيتُه سرابا، وبيتي صفنةً مشدوهةً بالتّلفاز، تتبدّلُ إلى مشاهدة متبرِّمةٍ من قلّةِ التأثّر. أنظرُ في الشاشةِ فيروعُني أنّ هذا الانحلالَ لا يغضبُني. أتساءلُ مثل عجوزٍ عن أهلِ كلِّ هؤلاءِ الشبّانِ الصغارِ يومِئون بحركاتٍ إباحيّةٍ، ويتفوّهون بتفاهاتٍ بثقةٍ بالنفس.

كنا، أنا وهو، نؤمنُ بالحريةِ، حرية ضدّ العبوديّةِ، لا حرية للاستعراض. وكنا نؤمنُ بالحبِّ المباحِ وليس بالإباحيّةِ دونَ حبّ.

كنت أسمعُ قلبَه. تبلغُني نبضاتُه، وتهزُّ روحي، فأسلك طريقا التفافيّا حول ما يُعجبُ وما لا يعجب الناسَ. وأنعطِفُ حول حساباتِ الربحِ والخسارة. لم أدخلْ دربَ هنا وهناك، وبلدي وبلدِه. تجنبت زقاقَ أنا وهو. وكنت أجِدُه حيث انطلقتُ للبحث عنه. كنت أجدُه معي عندي، كلانا، أنا وهو، كنا بانتظاري.

استنزفني. لم أعُدْ أنتظرُ إلا نفسي التي أطلبُها بالهاتف «دليفري»، أو أنتظرُ في المقهي أن يوضبوا لي نفسي «تيك أواي» أو «دوجي باج» للثلاجة. وفي الليل حينما أكون وحدي أُذيبُ الجليدَ عن نفسي في الـ «مايكرو ويف» لكي أتمكّنَ من استهلاكها.

الدنيا نفسُها أصبحت صمّاءَ، وأصبح مستطلعو الرأي العامّ يقرّرون ما يعجبُ الناسَ، إذ يقلدون ما استطلعوه لهم.

رفضُ الكذبِ بات داعيًا للقنوطِ، ولم يعد دافعا لأيّ فعل.

في هذه الأثناء أصبح حقُّ عودة اللاجئين إلى ديارهم حقَّ العودة إلى مخيَّمهم الذي فرَّغَ سكانُه أثناءَ الاشتباكات.

هوامش على الأصحاح التاسع

عليّ أن أنهضَ باكرا للسفر. أبحثُ في الليل عن طريقةِ ضبطِ الهاتف الجوّال كأنّه منبّهٌ، ثم أخلد للنوم وحدي. ترافقُني نصفَ نائمةٍ مثلَ كابوسٍ فكرةُ الاستيقاظِ قبل شروقِ الشمس.

قمت في عتمةِ ما قبل الصباح في بلاد باردة. غالبا ما دفعتني عتمةُ صباحِ الشتاءِ الموحشةِ إلى إلغاء سفرٍ إلى الخارج قبل ساعاتٍ من موعدِ الطائرة. وقفت أتعرّفُ إلى نفسي في المرآة، كأنني أنظّفُ أسنانَ امرأة غريبة. لمحت في غرفة الفندق سخان ماء وأكياس قهوة سريعة الذوبان وكؤوس. لم أعد القهوة.

أنا الآن وحدي في سيارةِ أجرةٍ حجزَها الاستقبالُ في الفندقِ مع وجهِ السائقِ في المرآةِ متوجهةٌ إلى الطائرة. تمر بذهني شوارد من نوع أنه لا أتعسَ منَ

الاستيقاظِ وحيدةً باكرا للسفرِ إلا الهبوطُ في بلدٍ آخرَ لن يستقبلَني فيه أحد.

على المقعد الخلفيِّ لسيارةٍ تشقّ طريقَها إلى المطار في الصمتِ والشوارعِ المعتمةِ الغريبةِ في مدينةٍ يجب أن أعمِلَ التفكيرَ لكي أستنتجَ ثم أتصوّرَ أنّ في أدوار بناياتها فوق المحالِّ التجاريّةِ المغلقةِ يغفو بشَرٌ في أسِرَّتهم ويشخرون أو لا يشخرون، أو يستيقظون برائحة فمٍ كريهة في الصباح، أو يستخدمون المراحيضَ بعد فنجان قهوة في الفجر، في مدينةٍ لم أزرْ فيها غيرَ الفندق تذكّرتُ هذا النشيدَ. عبثا حاولت أن أحدّدَ ملامحَ «أنا» التي قالته...

أنا لا أحبُّ هذا النشيدَ، إذًا، أنا هنا الآنَ. أنا أتذكّره، إذًا، أنا أنا. أخشى الرواسم، «الكلشيهات» كما ندعوها. أصمُّ أذنيَّ عن النشيد، وذاكرةٌ تلحُّ وتتلوه عليّ في الجهة الأخرى من أذنيّ.

أيُّ «أنا» قالت هذا النشيدَ الذي يُحرِجُني الآن؟ أتجنبه لأنه يبدو رومانسيّا شديدَ الغباء.

في هذا النشيد يعدني أن نلتقي حيث ما زالوا يحبّونَ دونَ استدراك، حيث ما زالَ النَّاسُ مؤدّبينَ، ويخجَلون، ويُحرَجون.

حيثُ ما زال الهدفُ هدفًا والوسيلةُ وسيلةً، حيث لا تعتبرُ الاستقامةُ بلاهةً بل فضيلة. يعدني أن نلتقي حيث الخيانةُ لا تصلُ حدَّ أن يُطعَنَ في الظّهرِ مرَّةً أخرى ذلك المطعونُ في الصَّدْر.

أن نلتقي حين لا يطلبُ القهرُ أكثرَ من الصّمت، حين لا يتطلّبُ الذُّلُّ استثارةَ إعجابِ الظَّالم.

أن نلتقي حين لا ينسحبُ حبُّ الأهلِ للأولادِ أمامَ المباهاةِ بهم دون حبٍّ.

فماذا عساي أفعل بمثل هذا الكلام الذي يبدو لي محرجا الآن؟ لا بد من التملص بأية طريقة.

نفسي تصرُّ أن تذكّرني به في المقعد الخلفيّ لسيارةٍ في عتمةِ أزقّةٍ غريبةٍ على مسمعِ صوتِ دواليبِ السيّارةِ تشقُّ شوارعَ رطبةً زلِقةً قبلَ الفجر بلحظات، قبلَ صباحِ بلادٍ باردةٍ لن أشهدَه إلا من شبّاكِ الطائرة.

قاومت بإصرار، وعبرتُ كلَّ إجراءات المطار في غيبوبةٍ لأنّ وعيي كان منشغلا بأمرٍ واحد؛ منعِ هذا النشيدِ من ولوج إدراكي من المنطقة الرماديّة بين الوعي واللاوعي. لا أذكرُ كيف وصلتُ إلى مقعدي في

الطائرة. لا أذكر متى وكيف أخرجتُ جوازَ السفرِ ولا أين وضعتُه. لم يعلق في ذهني شكلُ أحدٍ منَ الركّابِ الذين تجمّعوا عندَ بوابةِ الخروج. نسيت أصَعِدْنا الحافلةَ أم خرجنا مباشرة من البوّابةِ إلى الطائرةِ. وعندما غادرت الطائرةُ أرضَ المطار تعطّلَتْ دفاعاتي إذ سيطرَتْ عليَّ نصفُ إغفاءة. تحوّل الطنينُ في أذني لحنا سريعا. بدأ النشيدُ بإيقاعٍ خفيفٍ سهلِ الاحتمال يتفحّص قدرتي على المقاومة، إلى أن اكتشفَ تعطُّلَ وعيي وشلل ذهني فأخضعهما لتدفّق إيقاعي للذاكرة، وما لبثت أن فاضت. وغرقتُ في عالمٍ آخر.

مكتبة
t.me/t_pdf